سلسلة المشكلات السلوكية للأطفال

الكذب في سلوك الأطفال

إعـــداد:

محمد علي قطب الهمشري

وفاء محمد عبد الجواد

علي إسماعيل محمد

مكتبة العبيكان

مشكلة الكذب

في

سلوك الأطفال

إعداد:

محمد علي الهمشــري

وفاء محمد عبد الجواد

علي إســماعيل محمد

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤١٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الهمشري، محمد علي قطب

مشكلة الكذب في سلوك الأطفال / محمد علي قطب الهمشري، وفاء محمد عبد الجواد، علي إسماعيل محمد - الرياض.

...ص، .. سم

ردمك ٥-٣٢٥-٢٠-٩٩٦٠

١ - علم نفس الطفل ٢ - علم النفس العلاجي ٣ - الكذب

أ - عبد الجواد، وفاء محمد (م. مشارك) ب - محمد، علي إسماعيل (م. مشارك)

ج - العنوان

ديوي ١٥٥,٤ ١٧ / ٣٢٦٥

ردمك : ٥-٣٢٥-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع : ٣٢٦٥ / ١٧

الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

النـــاشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص . ب ٦٢٨٠٧ الرمز البريدي ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تعاني الأسرة المسلمة في هذا العصر ما يعانيه غيرها على مستوى العالم أجمع، من ((المشكلات السلوكية)) في تربية الأطفال.

ويبدو أن طبيعة العصر الذي نعيشه، وما جلبته المدنية من تعقيدات نتيجة للتقدم الصناعي والتقني وازدحام السكان في المدن، وطغيان المادية على معظم النشاطات البشرية، والسباق الرهيب بين المجتمعات والأفراد للأخذ بأسباب التقدم، وقضاء الإنسان العادي معظم يومه في المصنع أو المتجر بحيث لا يبقى له سوى سويعات قليلة يقضيها بين أفراد أسرته ومع أبنائه، إلى جانب ما يحدث الآن في كثير من المجتمعات من اشتغال المرأة بالأعمال العامة سعياً وراء كسب المزيد من المال بذريعة زيادة الدخل وتحسين المستوى الاقتصادي والاجتماعي للأسرة..

كل ذلك لم يعد يترك للآباء والأمهات الفرص الكافية لرعاية أبنائهم ولملاحظة سلوكياتهم ولإشباعهم بالمحبة والعطف والتوجيه، بما يؤدي إلى التوافق مع القيم الإسلامية الخالدة والسلوك الاجتماعي الصحيح، وذلك برغم ما بين أيدينا من كنوز تتمثل في القرآن الكريم وفي الآداب النبوية وفي التراث التربوي الإسلامي الذي إن اتبعناه كفينا أنفسنا وكفينا مجتمعاتنا كثيراً من الشرور.

والمشكلات التي نواجهها مع أبنائنا اليوم مشكلات عديدة، منها التجاء أبنائنا أحيانا إلى الكذب أو السرقة أو الهرب من المدرسة، ومنها كذلك ما يتصل بالتمرد والعصيان أو بالتدمير والتخريب، ومنها ما يتصل بالفشل الدراسي والاندماج مع صحبة السوء، ومنها مشكلات تتصل بالتدخين والإدمان، ومنها ما يتصل بالاعتداء على الغير والعدوان..إلخ.

وقد لا يفطن الكثيرون منا إلى أنه رغم أن العلوم السلوكية الحديثة كعلم الإنسان، وعلم الاجتماع البشري، وعلم النفس بفروعه المختلفة، ومنها الصحة النفسية، وعلم نفس الجريمة، وعلم النفس الاجتماعي البشري، وعلم نفس الشواذ.. رغم أن هذه العلوم جميعها قد ركزت بحوثها على مثل تلك المشكلات وأنتجت لنا رصيداً ضخماً من المعرفة حول سلوك الإنسان ودوافعه وطرق حدوث التعلم البشري وتكوين العادات واكتساب المعلومات والمفاهيم والقيم والعواطف والاتجاهات..

رغم كل ذلك فإن رجوعنا إلى تراثنا الإسلامي الخالد متمثلاً في التوجيهات القرآنية المحكمة وفي الحديث الشريف الصحيح وسيرة الرسول والصحابة من بعده والمجتمع الإسلامي.. للتنقيب عن عظمته وأحكامه لا يتنافى مع الاستفادة من سائر المصادر المتاحة في المراجع الإسلامية وفيما توصل إليه العلم الحديث لحماية أبنائنا من الوقوع في براثن الأمراض الاجتماعية الخطيرة التي أشرنا إليها والتي تسيء بالفعل إلى أعظم ما نملك في هذا العالم.. أبنائنا الذين نعدهم لمستقبل أفضل يعود فيه ضياء الإسلام لينشر دفئه وحنوه وحكمته على سائر بقاع المعمورة.

إن غاية ما يُطلب منك أيها القارئ العزيز أن تمنح قراءة هذه السلسلة نصف ساعة شهرياً من وقتك الغالي، تطلع فيها على مناقشة إضافية لإحدى المشكلات السلوكية التي يتعرض لها أبناؤنا، وإننا لعلي ثقة من أنك سوف تكرس لهؤلاء الأبناء مثل هذا الوقت على الأقل يومياً؛ لتجلس معهم جلسة عائلية هادئة تتعرف فيها أحوالهم الصحية والانفعالية، والمشكلات التي يعانونها على مستوى المنزل والأسرة، ومستوى المدرسة، ومستوى المجتمع الكبير الذي يندمجون فيه إن عاجلاً وإن آجلاً لقضاء

معظم وقتهم اليومي.. وبذلك تحميهم من الوقوع في مصايد الخطر التي قد تجني على مستقبلهم كمواطنين صالحين يرفعون رايات المجتمع الإسلامي.

سوف تعرف الكثير عن مراحل نمو الأطفال وعن الخصائص الجسمية والنفسية لكل مرحلة من تلك المراحل وكيفية التعامل معها، وسوف تعرف الكثير أيضاً عن طبيعة المشكلات التي تعترض الطفل خلال تعامله اليومي في البيت وفي المدرسة وفي المجتمع، وأسباب ظهور تلك المشكلات، وطرق الرعاية والتوجيه اللازم لحمايتهم من الوقوع فيها، وسوف تشعر أنك تقوم بعمل عظيم حقاً من أجل أداء وظيفة الأبوة، كما سوف تشعر الأم والإخوة أنهم يقومون بالفعل بأداء رسالة تربوية خطيرة.

قال تعالى: ﴿ والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ (سورة التين).

وقال جل شأنه: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (الآيات ١٢- ١٤ المؤمنون).

وقال تعالى: ﴿ ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم... ﴾ (الآية ٥ الحج).

مشكلة الكذب في سلوك الأطفال

((الكذب)) في حياة الإنسان المُكلف[1] من أشد الأمراض الاجتماعية خطراً لأنه يقوض بناء المجتمع ويقضي على بناء الثقة بين أفراده، ويجعل التشكك والارتياب فيما ينقله الآخرون إلينا بديلاً للاطمئنان والأمان، فكل إنسان يشك ويرتاب فيما يعرض عليه غيره من الناس ولا يصدق ما ينقلونه إليه من أخبار أونصائح أو معلومات، وشيوع الكذب في مجتمع من المجتمعات هو البداية لتفكك هذا المجتمع وانحلاله. قال تعالى: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾ (النحل، الآية: ١٠٥).

لكن كثيراً ما يواجه الآباء والأمهات وغيرهم من المربين مواقف يكون بطل الموقف فيها صغيراً لم يجاوز الرابعة أو السابعة أو التاسعة من العمر ـ نجده فيها يقوم بأدوار من وجهة نظرنا تحوير للواقع ومجافاة للحقائق وتحايل عليه وليٌّ ظاهر للوقائع وقلب للمحسوس الملموس إلى صورة أخرى ليس لها في حقيقة الأمر وجود..

انظر إلى الأمثلة التالية:

– إذا رأيت الطفل يبعث الحياة في الجمادات التي حوله، ويتحدث معها كأنها كائن حيٌّ يشارك في النشاطات التي يقوم بها وينفذ الأوامر ـ فهل تصفه بالكذب؟

– عندما يشي الصغير بأقرانه في الحضانة أو في الصف الابتدائي لدى المعلمة وينسب اليهم ما لم يفعلوه، كأن يقول إنهم ينتقدون المعلمة، أو أنها لا تعجبهم ـ فهل يقع هذا ضمن الكذب الذي يأثم به الكبار؟

---

(١) المكلَّفُ: البالغ الذي تهيئه سنه وحاله لأن تجري عليه أحكام الشرع.

- إذا رأيت طفلاً يحكي لأقرانه قصة خيالية ينسب فيها إلى نفسه دوراً مهما بأن يجعل من نفسه بطل القصة مثلاً أو أحد المشاركين فيها ـ فهل نصفه بالكذب الذي يدخل به في الإثم؟

- عندما ينتحل الطفل عذراً يحمي به نفسه من العقاب الصارخ الذي يوقعه المعلم بمن يقصر في أداء الواجب المنزلي ـ فهل تتسرع بوصفه بالكذب؟

- إذا تصدق الطفل بمصروفه اليومي من النقود وقال خشية العقاب المتوقع من أبيه إنه اشترى بالنقود حلوى ـ فهل تعاقبه على أنه كاذب؟

- إذا ادعى الطفل أن لأبيه سيارة فاخرة وأنه يسكن قصراً فخماً على حين أنه من بيئة متواضعة للغاية ـ فهل يشهر به على أنه كاذب؟

في الأمثلة السابقة ندرك على الفور أن ثمة فارقاً كبيراً بين الكذب الذي يجري على لسان البالغ المُكلفِ، والحيلة التي يلجأ إليها الصغير لحماية نفسه من العقاب المبرح أو لتعويض الشعور بالنقص أو لوقوعه تحت تأثير خياله الجامح.. ومن الطبيعي ألا يتعجل المربي وَصْمَ الطفل بالكذب والأولى من ذلك أن يبحث المشكلة من جذورها فيتعرف الدوافع والظروف والبيئية التي جعلت الطفل يسلك مثل هذا السلوك.

ولا زال الطفل في برّ الأمان ولا زالت الأسرة كذلك في برّ الأمان ما دامت تهتم بدراسة ما يصدر عن الطفل من سلوك بالملاحظة والتتبع وما دامت تحرص على تفسير ما يصدر عنه في ضوء خصائص نموه والدوافع التي تحركه، وتدرس البيئة المحيطة به من المعاملة المنزلية والمدرسية لتعيد النظر في سائر الظروف المحيطة بالطفل، ولتوفر له إشباع حاجاته الجسمية، كتوفير الغذاء المناسب والملبس المناسب وإشباع حاجاته النفسية كالحاجة إلى المحبة والتقدير والعطف، وحاجته إلى الحرية

واللعب والانطلاق؛ تعبيراً عن نشاطاته المتدفقة وحاجته إلى التوجيه والإرشاد وحاجته إلى النجاح، مما يدخل في الدراسات التي يهتم بها علم النفس؛ معاونة له على اجتياز كثير من الأزمات التي يمر بها في حياته؛ نتيجة للتضييق عليه أحياناً، ولحرمانه من المحبة والعطف أحياناً أخرى، ولإنزال أقسى العقاب البدني به في حالة، ثالثة مما قد ينتهي به بالفعل إلى الانحراف عن طريق التربية السليمة[1] .

إننا نحاول في هذا الكتاب أن ندرس ظاهرة لجوء بعض الأطفال أحياناً إلى الكذب، وسوف نحلل بعض المواقف التي تؤدي إلى لجوء الطفل إلى الكذب، فنعرف أسبابه وصوره؛ وكيف يكون موقف الأب والأم والأسرة والمدرسة من هذه الظاهرة؟ بل وكيف نحميه من الوقوع بحق في براثن المشكلة معتمدين في ذلك على ما تقدمه الدراسات المطورة في علم نفس الأطفال، وعلى المبادئ والأسس التي أرساها ديننا الحنيف ليضمن النمو السليم لقوى الطفل واستعدادته بما يؤهله للتواؤم الكامل في المجتمع المسلم.

---

(١) حامد زهران (١٩٧٧): الصحة النفسية والعلاج النفسي، القاهرة: عالم الكتب ص٤٩ ـ ٥١.

تعرّفْ طفلك

قال تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا * حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾ (الآية ١٥ الأحقاف).

يحرص كل صاحب مهنة أو حرفة على تعرف المواد التي يتعامل بها؛ فالنجار يعرف جيداً أنواع الخشب، ومصادره، وطريقة التعامل معه، وكيفية تصنيعه، وقدرة كل نوع من أنواع الخشب على الاحتمال، كما أنه يعرف طريقة حفظه وصيانته وتجديده..إلخ.

والشيء نفسه يقال عن صانع الأبسطة والسجاد فهو يعرف أنواع الغزل والخيوط التي تستخدم في هذه الصناعة، ويعرف مصادرها وصلاحية كل نوع منها للأغراض المختلفة، ويعرف كذلك كيفية التعامل مع أنوال النسيج اليدوية أو الميكانيكية، ويعرف الكثير عن الأصباغ التي تستخدم في صناعة السجاد وعن المساحات والأنواع المتوافرة في السوق.. والشيء نفسه يحدث في مجالات المهن المختلفة.

ومن المؤسف أننا – آباء أو كمعلمين – نتحمل مسؤولية خطيرة في تربية النشء، ولكننا لا نعرف إلا القليل عن خصائص نمو الأطفال الذين نتعامل معهم ونعدهم لتحمل المسؤولية.. أخطر مسؤولية للأجيال القادمة.

يتحدث البعض منا بثقة عن الاستعدادات الكامنة لدى الطفل منذ لحظة تكونه جنيناً في رحم الأم - لكننا قد لا نعتني كثيراً بتعرّف العمر الزمني للطفل الذي تظهر فيه بعض تلك الاستعدادات.. وإذا كان البعض منا

يعرف أن تلك الاستعدادات التي يولد بها الطفل تشمل الاستعدادات للنمو الجسمي والعضلي والحركي، والاستعدادات العقلية تظهر على هيئة قدرات على الملاحظة والانتباه والإدراك، وقدرات على التفكير والتذكر والتخيل والتصور، إلى جانب قدرات على التحليل والتقييم والاستنتاج واستعدادات للنمو اللغوي تجعل الطفل قادراً من خلال نموه في السنتين الأوليين على ترديد بعض الألفاظ البسيطة مثل (بابا) و(ماما).

ثم هو في المرحلة التي تلي ذلك في السنة الثالثة والرابعة والخامسة من العمر طفل ثرثار كثير الأسئلة يحاول أن يفرض نفسه على الأسرة الصغيرة حوله ليقوم ببعض الأدوار التي يقوم بها الكبار فيها كالمعاونة في الأعمال المنزلية والمشاركة في مشاهدة التلفاز والخروج مع الأم أو الأب ليستكشف العالم خارج دائرة البيت الصغيرة.

وقد يعرف البعض منا كذلك أن الطفل يولد باستعدادات انفعالية وجدانية تعبر عن نفسها في مواقف شتى خلال سنين حياته الأولى في البيت..بين البكاء والغيرة والخوف والاستطلاع والحب والبغض..إلخ، وإذا كنا نصف طفل الثالثة من العمر بحدة الانفعالات وبتقلبه السريع من السرور إلى البكاء، ومن الحب إلى البغض.. فإن الاتزان الانفعالي الكامل للناشئ يرتبط بتكوين العواطف الثابتة المستقرة نحو الناس والأشياء حوله.. وهذا لا يتأتى إلا في مرحلة متأخرة نسبياً، بل إن هذا الاتزان الانفعالي لا يستقر تماماً إلا بعد اجتياز مرحلة المراهقة.

وقد يعرف البعض منا شيئاً عن النمو الخلقي للطفل الذي يظهر على هيئة قيم واتجاهات تميز سلوك البالغ الراشد... لكن طفلنا الصغير خلال الفترة الطويلة التي يقضيها في البيت منذ الميلاد حتى نهاية مرحلة التعليم الأساسي على الأقل يكتسب الكثير من القيم والاتجاهات السليمة من الأسرة

والمدرسة بالقدوة الصالحة التي يجدها هنا وهناك وبالنصائح والإرشادات التي يجدها باستمرار لدى آبائه ومعلميه، ويمتصها كذلك من خلال المشاركة المطردة في حياة الجماعة التي ينتسب إليها، بل إن جوهر التربية الخلقية الصحيحة يمتصه الناشئ من دروس التربية الإسلامية والتزامه بآداب الدين وقيمه وأدائه لواجباته وفروضه من صلاة وزكاة وصوم وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

هذه لمحة عامة قصدنا بها أن تحرص على تعرُّف طفلك بطريقة أكثر عمقاً[1] .

---

(١) حامد زهران (١٩٩٠م): علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة) ـ ط ٥، القاهرة: عالم الكتب، ص ص ١٩١-٢٤٠، ص ص ٢٨٦-٢٨٧.

لمحة عن خصائص النمو في المراحل العمرية المختلفة

يمر الطفل في حياته بأطوار متعددة من مراحل النمو، فهو في سن المهد غيره في سن الحضانة ورياض الأطفال، غيره في سن الصفوف الأولى من المدرسة الابتدائية، غيره في الصفوف الأخيرة من تلك المدرسة.

وهو في المرحلتين المتوسطة والثانوية شاب يشارك في مناشط الحياة اليومية للكبار، ويلتزم بالقيم التي يلتزمون بها، ويشاركهم أفكارهم ومشاعرهم، ويسهم معهم بنصيب في حمل أعباء الحياة التي يعيشونها، ويسلك ما يسلكون من سلوكيات الحياة.

ومن الظلم للطفل الصغير في الثالثة أو الرابعة أو الخامسة أو حتى السادسة من العمر أن نطلب منه أن يلتزم بالمعايير التي يأخذ بها الكبار في حياتهم..

فطفل الثالثة ـ على سبيل المثال ـ يكثر من الأسئلة عن أسماء الأشياء التي تقع تحت بصره وسمعه في المكان الذي يوجد فيه، وهو يكرر السؤال نفسه مراراً وتكراراً.. ونحن الكبار لا ينبغي أن نطالبه بالسكوت أو الكف عن الأسئلة والالتزام بالأدب والصمت؛ لأن أسئلة الطفل الكثيرة نشاط طبيعي تلقائي لدى معظم أطفال هذه السن يحصلون عن طريقها على الكثير من المعلومات والألفاظ والأسماء للعالم الذي يعيشون فيه، فضلاً عن أنهم يكتسبون الثقة بالنفس عندما نستمع إليهم ونجيب عن أسئلتهم، ويشعرون أنهم نظراء لنا يتحدثون معنا فنستمع إليهم، ونجيبهم عما يسألون.

وطفل الرابعة كثير الحركة يتسلق ويقفز ويثب، ويضـرب الأرض بقدميه، ويصل إلى الأشياء الموضوعة بعيداً عنه ويصر على حمل الأشياء بصرف النظر عن وزنها، يريد أن يثبت قوته وسيطرته على العالم، وعبثاً نحاول أن نثنيه أو أن نطلب إليه التوقف؟ فنشاطه تلقائي طبيعي، من الخير له ولنا أن نوفر له الطريق الصحيحة لإشباعه، ولا يمكن أن نفرض عليه الالتزام بالأدب والجلوس ـ كما يجلس الكبار ـ مستقراً دون حركة.

وطفل الخامسة كثيراً ما نجده مشغولاً بلعبه أو بالعالم الخاص الذي يهئيه لنفسه، فهو يوظف كل ما يقع تحت يده فيما يسمى (باللعب الإيهامي)[1] .

فالعصا يركبها لتصبح حصاناً يقفز به في أرجاء الحجرة، ويخاطبها كما يخاطب الفارس حصانه. والمنضدة يقلبها لتصبح عربة يجرها في كل مكان. وذراعاه يفردهما ليصيرا جناحي طائرة، وغطاءات الزجاجات الفارغة تصبح أطباقاً يدور بها وكأن بها طعاماً.

وقد يجمع حوله غيره من الأطفال ليقوم بدور الأب والأم أو المعلم يلقي بتعليماته، ويؤكد لهم أنها يجب أن تطاع، وقد يقلد الشرطي فيقف في منتصف الحجرة لمنع المرور بحجة أن الإشارة حمراء..

وكل هذه أنواع من اللعب التمثيلي الإيهامي، يهيأ للطفل فيها أنه يعيش في عالم واقعي جاد محسوس[2]. ومن وجهة نظر التربية فإن هذا اللعب يمثل مرحلة مهمة

---

(١) حامد زهران: علم نفس النمو ـ الطفولة والمراهقة، طبعة خامسة، ١٩٩٠م القاهرة، عالم الكتب ص ١٦٣-١٦٤.

في تكوين الشخصية الاجتماعية للطفل؛ لأنه يساعده على فهم ما يدور حوله في المجتمع، وتقبل الأدوار التي تنتظره كفرد في هذا المجتمع.

ولا ينبغي أن يتصدى الكبار للطفل بالمنع والإعاقة والتدخل أو السخرية من العمل الذي يقوم به؛ لأنه نشاط طبيعي تلقائي في مرحلة مبكرة من العمر يعد الطفل لحياته في المراحل التالية.

وطفل السادسة عندما يذهب إلى المدرسة يجد أسلوباً مختلفاً من المعاملة؛ فهو الآن مسؤول عن الاستيقاظ في وقت باكر في الصباح، وهو مسؤول عن حمل أدواته المدرسية، وعن مواجهة المعلم أو المعلمة، وعن معايشة غيره من الأطفال الآخرين، وعن أداء الواجبات المدرسية. وهو عرضة للوشاية به لدى المعلم أو المعلمة من الأطفال الآخرين في سنه، ومن زملاء فصله عندما يغارون من ملبسه، أو من مظهره، أو عندما يحسدونه على ما يقتنيه من لعب وأدوات... فهذا طفل يدعي عليه أنه يأخذ أغراضه، وهذا طفل آخر يقول عنه: إنه ضربه، وهذا ثالث يقول عن آخر: إنه يعطله عن الكتابة.

وهذا طفل لم يعمل الواجب المنزلي، وذلك طفل آخر يعجز عن تقليد خط المعلم أو المعلمة.. وهذا طفل ثالث قد ضاع منه قلمه فجلس دون عمل.. ومن ينجي هؤلاء جميعاً من عقاب المعلم أو المعلمة إذا لم تمنح من الله هبة الصبر على الأطفال، ومن قبل المسؤولين الإعداد من أجل تكوينها كمعلمة تفهم بطريقة صحيحة سلوكيات الأطفال. ونوع العقاب الذي يمكن أن توقعه بهم..؟

والطفل قد يلجأ إلى أساليب طفلية ليحمي نفسه من العقاب.

---

(٢) عبد العزيز القوصي: أسس الصحة النفسية، الطبعة التاسعة ـ القاهرة ١٨٩١م، النهضة المصرية، ص٣٤٣.

في الأمثلة العديدة التي طرحناها قد يلجأ الطفل إلى أساليب طفلية مختلفة ليحمي نفسه من عقاب السلطة المربية.

فهو قد يعِدُ بالكَف عن القفز والتسلق والوثب، ولكنه سرعان ما ينسى وعده تحت وطأة نشاطه العضلي المتدفق، فيعود ويعود إلى ما وعد بالكف عنه.

وهو قد ينسب إلى غيره من الأطفال ما لم يفعله حماية لنفسه من قسوة العقاب، أو تزلفاً إلى السلطة المشرفة وتقرباً إليها.

وقد ينسب إلى نفسه إنجاز عمل (كواجب مدرسي مثلاً) لم يعمله هو، وإنما عمله غيره بغرض تفادي اللوم والعقاب.

الدوافع التي تحرك سلوك الطفل

إن ما نشاهده باستمرار من أطفالنا هو (السلوك الظاهري) الذي نلاحظه باهتمام أحياناً وبعدم الاكتراث أحياناً أخرى في البيئة (المنزل ـ المدينة ـ المجتمع) ـ لكننا قل ما نفكر في القوى الكامنة في الطفل والتي تعتبر الطاقة المحركة لذلك السلوك.. وتلك القوى هي ما يعبر عنه بالدوافع، والواقع.. ويظل الفرد في حالة من القلق حتى يشبع هذا الدافع أو الدوافع ـ فالإنسان الجائع يظل في حالة توتر وقلق حتى يجد الطعام فيأكل فيشبع الدافع الذي ظل مسيطراً عليه لفترة معينة وهو دافع الجوع. والبحث عن الطعام يستوي فيه الصغار والكبار..

والصغير في الثالثة أو الرابعة من العمر إذا ما شاهد أمه تلبس ملابس الخروج لزيارة إحدى القريبات نجده في حالة من التوتر المطلق إذا ما أحس أن أمه ستتركه في البيت تحت رعاية الإخوة أو الخادم... فهو يجري هنا وهناك يجمع حذاءه وملابسه ويصرخ طالباً عون القريبين منه في مساعدته على اللبس ليقف بجوار باب المسكن ينتظر لحظة خروج الأم ليتشبث بها مستعيناً بالصراخ والبكاء ـ وربما كان الدافع في هذه الحالة الأخيرة هو الكشف والاستطلاع للعالم خارج البيت، كما أنه قد يكون طلب الأمن والأمان في مصاحبة الأم وعدم مفارقتها، بل قد يكون كذلك رغبته في الحصول على شيء من الحلوى التي تقدم للزائرين عند الجيران والأقارب، كما قد يكون خشية الوحدة في غياب الأم أو العقاب من بعض المحيطين به.

هذان مثالان للدوافع المحركة للسلوك، ونحن إذا ما أمعنا في حياتنا اليومية سوف نجد أنه ما من سلوك تقوم به إلا ووراءه دافع، من ذلك مثلاً

النشاطات التي نقوم بها لجمع المال والتي نقوم بها لكسب محبة الآخرين، وتلك التي نقوم بها إرضاء لوجه الله تعالى وطمعاً في ثوابه وجنته.

والدوافع بهذا الوصف قد تكون دوافع أولية كالجوع والإخراج والنوم والعطش.. وهذه يترتب على عدم إشباعها إضرار جسيم بحياة الإنسان، وقد تكون دوافع ثانوية ترتبط بالوظائف الاجتماعية التي يقوم بها الإنسان في المجتمع مثل السعي للحصول على النجاح والتقدير والسعي للحصول على محبة الآخرين ورضاهم، والنضال من أجل الحرية، والسعي للاقتناء والملكية، والحاجة إلى الخضوع لسلطة ضابطة موجهة هي النظم الموضوعة أو التعاليم الإسلامية، ويترتب على عدم إشباع هذه الطائفة الثانية من الدوافع خلل في توافق الفرد وتكيفه مع بيئته، وقد يدفعه إلى أن يسلك طرقاً لا يقرها العرف ولا المجتمع ولا الدين[1] .

(١) محمود الزيادي (١٩٧٨م): أسس علم النفس العام، ط ٢. القاهرة: مكتبة سعيد رافت ص ٢٩٧ – ٣٢٧.

علم النفس يهتم بدراسة الدوافع

لأن موضوع الدراسة في علم النفس هو (السلوك) فقد ركزت مباحث علم النفس خلال القرنين الأخيرين على تقديم تفسيرات نظرية توضح القوى المنشطة والمحركة لهذا السلوك.

الغرائز محاولة لتفسير السلوك

نادى فريق من علماء النفس في القرن التاسع عشر وعلى رأسهم (مكدوجل) بأن الإنسان يولد في هذا الكون مزودا باستعدادات عصبية فطرية نفسية تجعل هذا الإنسان ينتبه إلى موضوعات معينة فيدركها، فينفعل بانفعال خاص فينزع نزوعاً معينة، وأطلقوا على ذلك الاستعدادات الفطرية العصبية النفسية اسم الغرائز، واجتهدوا في حصر الغرائز التي يولد بها الطفل الآدمي والتي يشترك معه فيها بعض الحيوانات وقدموا قوائم مختلفة بالغرائز التي أدركوا أثرها في السلوك، ومن ذلك غريزة البحث عن الطعام، وغريزة السيطرة، وغريزة الجمع والاقتناء، وغريزة الخوف، والغريزة الجنسية، وغريزة المقاتلة، وغريزة حب الظهور..إلخ.

وركز هؤلاء العلماء على أن للغريزة أركاناً ثلاثة تحكم السلوك الغريزي وهذه الأركان تبدأ بـ :

١- الإدراك. ٢- الجانب الوجداني الانفعالي. ٣- النزوع.

فالإنسان أو الحيوان يدرك وجود الطعام فيحس الجائع بانفعالات حشوية صادرة عن المعدة والأمعاء فينزع إلى تناول الطعام.

وبالمثل فإن الإنسان يدرك مصدر الخطر (حيوان مفترس، نار مشتعلة...إلخ) فينفعل بانفعال خاص هو (الخوف)، فينزع أو يسلك بطريقة معينة هي (الهرب).

وكان لنظرية (الغرائز) أنصار عديدون منهم (آدلر) الذي نسب سائر مظاهر السلوك الإنساني إلى غريزة واحدة هي (غريزة السيطرة)، ومنهم كذلك (فرويد) الألماني والذي قال بأن سائر مظاهر السلوك الإنساني تسعى لغاية واحدة هي (الحصول على الجنس الآخر).

وأياً كان موقف المدارس المختلفة من (نظرية الغرائز) فقد ثبت في الدراسات الحديثة أن محاولة حصر الغرائز في عدد معين أو التوسع فيها ليشمل أكثر من غريزة لا تكفي وحدها لتفسير دوافع السلوك الإنساني(١) .

الحاجات النفسية لتفسير السلوك

ظل موضوع دوافع السلوك الإنساني لفترة طويلة الشغل الشاغل لعلماء النفس وكل فريق، منهم يقدم التفسيرات التي تعبر عن المدارس التي ينتمي اليها.

ونادى علماء النفس الاجتماعي بأن المسؤول عن ظهور السلوك الإنساني هو وجود أي حيد عن الشروط البيئية المثلى اللازمة لتوافق الإنسان (أو الحيوان) مع بيئته..

فالتركيز هنا على أهمية الشروط البيئية المثلى وهي تتضمن بالطبع توفير الأمان في البيئة، وتوفير المحبة والعطف، من مأكل، وتوفير الحرية للكائن الحي بما لا يضر بالغير، وتوفير الحاجات الأساسية من مأكل

---

(١) صلاح مخيمر (د. ت) في علم النفس العام...، القاهرة: مكتبة سعيد رأفت ص ١٣١-١٥٥.

وملبس ومشرب؛ لأنه إذا لم تتوافر هذه الشروط نشأت الحاجة، والحاجة تجعل الإنسان يعاني التوتر والقلق حتى تتعدل الشروط البيئية لتوفر له ما يحتاج إليه فيتم اختزال الحاجة ويعود الاتزان إلى الكائن الحي وتتم المواءمة بينه وبين البيئة مرة أخرى.

إننا ونحن نتصدى لمعالجة المشكلات السلوكية للأطفال لا نستطيع اتخاذ أي خطوة صحيحة نحو علاج المشكلات ما لم يتوافر لنا فهم كامل عن خصائص نمو الطفل في النواحي الجسمية والعقلية والانفعالية والخلقية إلى جانب فهم الدوافع المحركة لسلوكه ومراجعة الظروف البيئية المحيطة به ليتسنى لنا توجيه هذه البيئة بما يحقق النمو السليم المتكامل للطفل.

دراسات التعلم الإنساني

يخصص علم النفس التعليمي جانباً كبيراً من مباحثه لدراسة التعلم الإنساني.. كيف يتعلم الطفل؟ وبمعنى آخر كيف يتم تعديل السلوك الذي يقوم به الآن إلى مستوى آخر تقبله الأسرة وتقبله المدرسة ويقبله المجتمع؟ ومن حسن الحظ أن فترة الطفولة في حياة الكائن الحي تمتد لسنوات طويلة يكون فيها تحت أعين الأسرة والمدرسة يتوليانه بالتعليم والتوجيه وينقلانه من أنماط من السلوك إلى أنماط أخرى أصلح وأفضل.

وإسهامنا في حل المشكلة السلوكية للأطفال هو دور نقوم به في تعليم الناشئ لأنواع أخرى من السلوك أكثر قبولاً في الوسط الاجتماعي.. ولكن هل يتسنى لنا أن نقوم بالتعليم، ونحن لا نعرف شيئاً عن كيف يتم التعليم؟

هل نترك الطفل يتعلم بالمحاولة والخطأ مع ما في ذلك من مخاطرة قد تضر بتكوينه الجسدي والنفسي؟ وعلى سبيل المثال إذا لاحظنا أن الطفل قد

بدأ يندمج في رفقة سوء - هل نتركه حتى يجره هذا السلوك إلى الوقوع تحت طائلة النظم؟

هناك حدود معينة لترك الطفل يجرب ويخطئ ويتعلم من خطئه فقد يصلح ذلك في تعلم مسألة هندسية أو حسابية أو حل لغز من الألغاز... لكنه لا يصلح إطلاقاً لتعلم الميول والاتجاهات والقيم والمفاهيم الصحيحة في كل ما يخص حياة الإنسان.

يمكن أن نرتب الموقف التعليمي فيما يتصل بالمعاونة على حل المشكلات السلوكية للناشئة واستبصاره لجوانب المشكلة، وهذا ما يطلق عليه (التعلم بالبداهة والاستبصار) حيث تشترك الوظائف العقلية والذكاء والخبرة السابقة في تحديد التعلم المطلوب بفضل الإعداد الجيد للموقف التعليمي وتنظيم مجاله.

كذلك يمكن أن يتم التعلم باشتراك المتعلم في تحديد المشكلة وحصر أبعادها ودراسة الحلول الممكنة للتخلص منها، والاتفاق على الأخذ بأحد هذه الحلول بحيث يتحمل العميل مسؤولية التنفيذ وأن يدرب على تقويم مدى التقدم الذي حدث عن طريق إبدال سلوك جديد بالسلوك غير المرغوب فيه[1] .

إن توظيف مباحث التعلم الإنساني في المعاونة على حل المشكلات السلوكية للناشئة أمر لا غنى لنا عنه نحن الآباء والمعلمين والمرشدين النفسيين - إذ تمدنا هذه الدراسات بفيض وافر من المعلومات عن طريقة تكون المدركات، وعن أهمية تنظيم وترتيب الموقف التعليمي، وعن كيفية

---

(١) رمزية الغريب (١٩٧١) التعلم: دراسة نفسية تفسيرية وتوجيهية. القاهرة: الأنجلو المصرية

ص ص ٤٩٥ – ٥٠٧.

استخدام أساليب التعزيز الإيجابي والسلبي في تثبيت السلوك الناجح للمتعلم عندما يتحقق له بعض التقدم على طريق الخلاص من المشكلة.

ومن حسن الحظ أن المصادر في موضوع التعلم عديدة يمكن أن يفيد منها الآباء والمعلمون وغيرهم.

الإرشاد والتوجيه

من فروع علم النفس الحديثة ذلك الفرع الذي يضع الأسس السليمة للاستفادة من مباحث الإرشاد والتوجيه في معاونة العميل على التخلص من مشكلته. ومن أهم المبادئ في الإرشاد والتوجيه توفر الثقة الكاملة بين الموجه والعميل، وترك الحرية للعميل للتحدث بإفاضة عن سبب المشكلة ونشوئها، والمعاملة المنزلية والمدرسية التي يلقاها ومنها أن يسود المقابلة جو من التقدير المتبادل مع التعاطف مع صاحب المشكلة وعدم التهويل في حجمها وأن يؤخذ في الاعتبار سائر الظروف المحيطة بالعميل في تكوينه الشخصي وفي الوسط الذي يعيش فيه..

وقد يسفر إن الراشاد والتوجيه تغيير الفصل أو المدرسة التي يذهب إليها الطفل، كما قد ينتج عنه تعديل اتجاهات ومواقف الأبوين نحو صاحب المشكلة، وقد يسفر عن توجيه العميل إلى الفحص الطبي لوجود مشكلة صحية عميقة الجذور.. كما يصاحب التوجيه والإرشاد غالباً لقاءات مع سائر المحتكين بالطفل في البيت ومع معلمي المدرسة لتكتمل الصورة عن المشكلة[1] .

---

(١) حامد زهران (١٩٨٠): التوجيه والإرشاد النفسي، ط٢ ، القاهرة: عالم الكتب ص ٢٣-٢٦.

لماذا يكذب الأطفال

١- الخوف من العقاب:

لعل من أكثر بواعث الطفل على الكذب (الخوف من السلطة) ممثلة في الأب أو الأم أو المعلم أو أحد الذين يوكل إليهم تربية الطفل وتأديبه.

والحق أن الآباء والمعلمين ينسون التوجيه النبوي الكريم في الحديث الذي يوصي بملاعبة الطفل سبعاً وبتأديبه سبعاً وبمصاحبته سبعاً.. فقد قال رسول الله ﷺ: ((لاعبه سبعاً، وأدِّبهُ سبعاً، وصاحبه سبعاً، ثم اترك له الحبل والغارب)) رواه البيهقي.

فبعض الآباء والمعلمين يعتقدون أن الحنو الزائد على الطفل وتدليله غالباً ما يؤدي إلى فساد تربية الطفل، وهناك مثل إنجليزي يقول: Spare the rod and spoil the child فأي ذنب يرتكبه الطفل يستأهل العقاب القاسي حتى لا يعود إليه.. فإذا قصر الطفل في أداء واجب منزلي لأي سبب من الأسباب أو إذا كسر كوبا أو عبث ببعض الأثاث المنزلي أو ترك الطعام ينسكب على ثيابه أو حتى يبول تبولاً لا إرادياً وهو نائم، كل هذه أنماط من السلوك يمكن أن يقع فيها أي طفل ولا تستأهل القوة الزائدة، وإنما يمكن معالجتها بتعرف الأسباب، والوقاية خير من العلاج.

لذلك فإن الطفل وقد عرف من خبرته السابقة مع الأب أو المعلم أنه سوف يلقى الجزاء القاسي لما فرط فيه من أمور - نجده يلجأ إلى انتحال الأعذار أو إلى نسبة الخطأ إلى غيره من الأطفال.

أما إذا نفذنا وصية رسولنا الكريم ﷺ ملاعبة الطفل سبعاً وبتأديبه سبعاً وبمصاحبته سبعاً - فإن ردَّ فعلنا لأي خطأ يرتكبه الطفل سوف يكون رد فعل هادئاً خالاً من الانفعال والغضب، بل إننا قد نُفهمه في هدوء أن ما فعله خطأ وأنه ينبغي أن يقول الصدق دائماً، وأنه إذا قال الصدق فسوف يجد السماح والمسامحة.

وكما أننا ضد القسوة في معاملة الأطفال فإننا ضد التدليل وكل ما نرجوه أن يكون موقفنا من الأخطاء التي قد يرتكبها الطفل موقف اتزان واعتدال.

٢- السعي لإرضاء السلطة:

يلجأ بعض الأطفال إلى الكذب سعياً لاستمالة السلطة ممثلة في المعلمة أو في الأب أوالأم.

وليس ببعيد قصة التلميذة (في بلد عربي) التي سمعت المعلمة تحدث إحدى زميلاتها عن مفارش اشترتها من السوق بسعر معتدل، فما كان من التلميذة إلا أن تدخلت في الحديث، وقالت إن لها تاجراً من أقاربها يبيع تلك المفارش بسعر يقل كثيراً عن الثمن الذي اشترت به المعلمة - ولم تكذب المعملة خبراً - فطلبت إلى التلميذة أن تشتري لها عدداً آخر من تلك المفارش، وخرجت التلميذة من المدرسة إلى صائغ الذهب الذي تتعامل معه أسرتها، وأخبرته أن أمها تريد بعض الأساور الذهبية فلم يتردد الصائغ في إعطائها العدد المطلوب لأنه يعرف الأسرة جيداً، وأخذت التلميذة الأساور الذهبية وباعتها في محل آخر لتجارة الذهب واستعانت بالنقود التي حصلت عليها في تغطية الفرق بين ثمن المفرش كما أخبرت به المعلمة وسعره الحقيقي في السوق والذي يزيد على ذلك بكثير... وانتشرت قصة المفارش بين معلمات المدرسة اللائي لجأن إلى التلميذة

لتأتي لهن بالمزيد من المفارش.. وانكشف الأمر عندما قابل صائغ الذهب والد التلميذة وسأله عن مدى رضاه عن الأساور التي أخذتها ابنته.. وبالطبع لم يكن يدري عنها شيئاً.

كان سلوك التلميذة في هذه الواقعة مدفوعاً برغبتها في كسب رضاء المعلمة، وربما في الحصول على مكانة متميزة على هذا الأساس بين غيرها من التلميذات وكان الكذب وسيلتها، ولولا حكمة الأب وحكمة مديرة المدرسة لكان سلوك المعلمات محلا للتحقيق بواسطة أجهزة الشرطة.

ومن الكذب الذي يقوم به الطفل سعياً لإرضاء السلطة لجوئه إلى من يعمل له الواجب المنزلي أو يرسم له خريطة أو يصنع له مجلة.. يقدمها للمعلم على أنها من إنتاجه هو بأمل أن يحظى بتقدير المعلم له ومكافأته بعلامات سخية.

إن مسؤولية السلطة في مثل هذه المواقف واضحة، فالعدل في المعاملة بين التلاميذ والإصرار على العلاقة المهنية السليمة بين المعلم والتلميذ لا تترك لمثل هذا النمط من الكذب سبيلاً.

وإن أخطر ما يمكن أن يؤدي إليه هذا النمط من الكذب - إن لم تمنعه وتقف له بالمرصاد - تخريج جيل يحسن التزلف إلى السلطة، وربما يلجأ إلى رشوتها لكي يحقق مآربه في الحياة.

٣- السعي لإثبات الذات والحصول على مكانة اجتماعية:

المفروض أن المدارس العامة (الحكومية) أماكن لتذويب الفوارق بين الطبقات لا فرق فيها بين ابن وزير وابن خفير؛ فالكل سواسية يجلسون على مقاعد نمطية، ويعلمهم معلم واحد، وتصرف لهم كتب موحدة، ويخضعون جميعاً للمعايير نفسها في الترفيع أو في الرسوب والإعادة.

ومع ذلك فإن بعض الأبناء الذين يفدون إلى المدرسة من مناطق محرومة نسبيًا يحسون بالنقص في مجتمع الفصل أو مجتمع المدرسة أو لشراء الحلوى أسوة بغيرهم من تلاميذ المدرسة.

وقد يلجأ هؤلاء إلي تعويض الشعور بالنقص عن طريق ادعاء بعضهم كذباً بأنه يسكن حياً من الأحياء الراقية، وأن لدى أسرته عدداً من السيارت الفاخرة، وأن أحد الوزراء هو قريب لصيق بهم..إلخ، يأملون بذلك أن يثبتوا ذواتهم ويحصلوا على المكانة الاجتماعية التي يتمتع بها غيرهم من التلاميذ.

وللأسرة دور هنا بأن تحرص على رفع معنويات الطفل، فالعبرة ليست بالحسب أو النسب ولا بالجاه أو الثروة، وإنما بالعمل والاجتهاد والتفوق ـ هذا إلي جانب أن الأسرة تبذل جهداً لتوفر لابنها حاجاته الأساسية دون سرف أو تفريط. .

كما أن على هيئة التعليم هي الأخرى دوراً كبيراً في مثل تلك الحالات، فالمعلم يقوّم أعمال التلاميذ بجودتها ووفائها بالمطلوب.. وقد يكون من بين التلاميذ الوافدين من أحياء محرومة من يتفوق بكثير على أقرانه الذين يسكنون أحياء راقية كما أن العبرة هي بدماثة الخلق ولين الطبع ورقة الجانب[1] .

وأنه ((لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)).

(١) حامد زهران (١٩٨٤): علم النفس الاجتماعي. ط٥، القاهرة: عالم الكتب ص ١٠١-١١٣.

٤- الخيال الخصب للطفل وعدم تفرقته بين الخيال والواقع:

من المألوف لمعلمي الصفوف الأولى من الدراسة الابتدائية أن يجدوا طفلاً في أحد دروس التعبير الحر يبتدع قصة خيالية يجعل من نفسه بطلاً لها، فهو على سبيل المثال سافر إلى بلاد كذا وكذا، وشاهد في الأدغال كذا وكذا وقابله حيوان شديد الافتراس صفاته كذا وكذا.. ويندمج الطفل في القصة كأنها وقعت بالفعل وأنه كان بطلها.. ويكتشف المعلم والتلاميذ بعد الاستماع إلى جزء من القصة انها من نسج خيال الطفل.. فقد تكون فيلما سينمائياً شاهده، أو حلماً رآه، بينما هو نائم، أو تكون القصة قد حدثت بالفعل لأحد أقارب الطفل فاستمع إليها ثم تقمص شخصية البطل فيها(٣).

٥ -الرغبة في الانتقام من آخرين:

قد يحس الطفل بأن هناك غريماً له من بين تلاميذ الفصل يحظى دائماً بالعطف والمحبة والتقدير من المعلم، على حين أنه هو ـ حسبما يرى ـ أحق بذلك العطف والحب والتقدير... فتلعب أحاسيس الغيرة دورها على شكل إشاعات يصنعها الطفل الأخير ضد غريمه... وقد يصل به الأمر إلى أن ينسب إليه مخالفة كبيرة أو فعلاً شائناً، وقد يستعدي عليه التلاميذ الآخرين ممن يشاركونه الشعور نفسه تجاه التلميذ المَحظِيّ ليشهدوا عليه بما لم يفعل.

وهذا هو ما نسميه بالكذب الانتقامي، وللأسف فإنه كما هو موجود بين الصغار في سن الحضانة والمدرسة الابتدائية فإنه يوجد بين الكبار الذين

---

(٣) عبد العزيز القوصي (١٩٨١م): أسس الصحة النفسية، ط٩، القاهرة، دار النهضة المصرية ص ٣٤٩ ـ ٣٥١.

يتنافسون في العمل أو التجارة باختلاق الإشاعات ضد غرمائهم للتنديد بهم والحط من مراكزهم... ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ (الآية ٦ الحجرات).

وللبيت والمدرسة دور كبير في تنشئة الناشئ على الأخلاق الإسلامية الحميدة والتي أوجزها الحديث الشريف: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر)) رواه البخاري وأحمد.

دور الأسرة في تعليم الطفل الكذب

الأب الذي يَعِدُ أبناءه بتقديم هدية معينة لأحدهم أو لهم جميعاً، أو يَعدهم باصطحابهم في نزهة خلال عطلة الأسبوع، ثم لا يفي بوعده لعذر معين.. إذا تكرر منه ذلك عرف الأبناء أن الإنسان يمكن أن يقول كلاماً، وهو لا يعني ما يقول (كذب).. ويتعلم الأبناء أو البنات ذلك بطريقة غير مباشرة عن الأب الذي يفترض أنه القدوة التي يتعلمون منها أنواع السلوك المرغوب فيها.

قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عودهُ أبوه

والأم التي تعتذر لجارتها أمام ابنتها عن إعارتها شيئاً من الأشياء التي تطلبها بعذر أن هذا الشيء غير موجود لديها.. على حين أنه موجود بالفعل.. أم تعلم ابنتها الكذب وإن لم تدرك ذلك.

والأب الذي يطلب إلى ابنه أن يرد على الهاتف، ويخبر المتكلم أن الأب غير موجود الآن بالمنزل هو أب يعلّم ابنه الكذب، فيشب على ذلك السلوك المقيت.

والخطورة في المواقف السابقة أن الأبناء الصغار لا يدركون أن كذبة الأب أو كذبة الأم كانت خاصة بموقف معين ربما كان لهم عذر فيه، وسرعان ما يقوم الصغير بتعميم النتيجة التي وصل إليها من تلك المواقف الأحادية البسيطة على مواقف أكبر في حياته المستقبلة.

وعندما يقوم الأب أو الأم بأداء الواجب المنزلي عن الطفل، ويسمحون له بأن يدعي أمام المعلم أو المعلمة أنه قام بعمله بنفسه.. ومثلها أيضاً أن يصحب الأب الطفل إلى طبيب ويطلب إليه كتابة شهادة طبية تفيد أن الطفل كان مريضاً في فترة معينة، على حين أنه كان في صحبة الأسرة في سفر طويل داخل البلاد أو خارجها.

هذا إلى أن القسوة الشديدة في المنزل، والصرامة في المعاملة وافتقار جو الحب والتسامح والفهم والمشاركة بين أعضاء الأسرة يشجع الأبناء والبنات على اللجوء إلى الكذب[١] .

دور المدرسة في تعليم الأطفال الكذب

يشعر الأطفال ـ وخصوصاً في الصفوف الثلاثة الأولى من المدرسة الابتدائية ـ بولاء كبير نحو المعلم والمعلمة، ويعتبرونه المثل الأعلى في السلوك.. فكل ما يقوله المعلم هو الصحيح.. ويمتص الأطفال كثيراً من القيم والاتجاهات السلوكية عن طريق المعلم أو المعلمة.

---

(١) حامد زهران (١٩٧٧م): الصحة النفسية والعلاج النفسي، ط٢، القاهرة: عالم الكتب. ص ص٩٠-١٠٠.

ومن الأسف أن بعض المعلمين يرتكبون أحياناً أخطـاء كبيرة فـي حق تنشئة هؤلاء الأطفال؛ فالمعلم الذي يعطي الأطفال هالة كبيرة عن إعداده ومواهبه وقدراته يعلمهم الكذب، ولسوف يكتشفون عندما يصلون إلى سن التاسعة أو العاشرة أنه ليس هناك إنسان يتصف بالكمال، ويعرفون أن معلمهم كان يكذب عليهم.

والمعلم الذي يغلق باب الفصل على التلاميذ ويطلب إليهم الصمت والهدوء، ويعين عليهم منهم بعض الرقباء ليكتبوا له أسماء من يتجرأ بالخروج على النظام، بينما يشغل نفسه هو داخل حجرة الدراسة بعمل خاص لا يستفيد منه التلاميذ يعلمهم الكذب؛ لأنهم سرعان ما يكتشفون أنه يكذب عليهم وعلى الآباء وعلى إدارة المدرسة؛ فبدلاً من أن يؤدي واجبه في تعليمهم يشغل نفسه بعمل خاص.

ومدير المدرسة الذي يوافق على عرض بعض اللوحات التعليمية في معرض المدرسة على أنها من إنتاج التلاميذ وهي في الحقيقة غير ذلك يعلم تلاميذه الكذب.

والمعلم الذي يسمح لنفسه بأن يقدم كشوفاً لإدارة المدرسة تحوي علامات تمثل أعمال السنة للتلاميذ لكنها غير مطابقة للواقع.. ثم تذهب العلامات إلى الآباء فيراها التلاميذ ويكتشفون أنها بعيدة عن الواقع هو معلم يعلم تلاميذه الكذب.

والمعلمة التي تكتسي أبهى الثياب بين يوم وليلة إذا ما أعلن أن ضيوفاً سوف يزورونها أو أن أحد كبار رجال الوزارة سيقوم بجولة فيها هي مدرّسة تعلم تلاميذها الكذب.

هذا فضلاً عن أن النظم المدرسية، واعتماد الإدارة المدرسية على العقاب، وعدم وجود فرص لمشاركة العاملين في المدرسة والتلاميذ في

بحث الشؤون المدرسية ووضع نظم المدرسة، وحرمان التلاميذ من الأنشطة المدرسية، وعدم إتاحة الفرص الكافية للتلاميذ على مستوى الفصل وعلى مستوى المدرسة للتعبير عن ذواتهم يمكن أن يؤدي إلى شيوع الكذب في المدرسة.

دور المجتمع في تعليم الأطفال الكذب

شتان بين المجتمع المسلم الذي تظلله علاقات المحبة والأخوة والتراحم الإسلامي.. ذلك المجتمع الذي إذا شكا منه عضو تداعي له سائر الأعضاء بالحمى والسهر وبعض المجتمعات المعاصرة التي قد يراها أبناؤنا من خلال أشرطة الفيديو أو أفلام التليفزيون؛ حيث تسودها علاقات الزيف والتزلف؛ فالمرؤوس يمتدح الرئيس بما ليس فيه، والرئيس بالتالي يتقرب إلى من هو اعلى منه بالمدح والإطراء ويذكر ما ليس فيه؛ عسى أن يصل إلى قلبه فينال رضاه، ويكون ذلك سبيلاً إلى حصوله على ما لا يستحق من أعلى المناصب أو الدرجات.

وطالب الوظيفة يكون محظوظاً لو وجد نسيباً أو قريباً يوصله إلى من بيده الأمر... فبذلك فقط يحصل على الوظيفة.. أما الجدارة والاستحقاق والكفاءة والقدرات الخاصة والمهارات فهي معايير على الورق، قل أن يؤخذ بها أو ينظر إليها ـ وتكون العصبية أعظم عندما يكون تقديم الهدايا والرشاوى هو السبيل لتحقيق الرغبات والحاجات.

فمدح المرؤوس للرئيس كذب، وتزلف الرئيس إلى من هو أعلى منه كذب، وحصول طالب الوظيفة على وظيفة لا يستحقها كذب، وتحقيق حاجة من الحاجات عن طريق الرشوة يتضمن الكذب..

والتهرب من الرسوم الجمركية المستحقة على السلع التي تدخل البلاد كذب، وإنكار ما يحمله المسافر من الممنوعات بالدوائر الجمركية كذب، وإخفاء أية حقيقة عن السلطات كذب، وقد تنتقل عدوى كل ذلك إلى الأطفال عن طريق مخالطتهم للكبار الذين يقعون في مثل تلك المحظورات[1] .

ومن حسن الحظ أن تلك الظواهر السيئة يقل ارتكابها والوقوع فيها بين أبناء مجتمعنا الإسلامي، وأنها إذا ما وقعت من وافد أو مقيم تلقى أشد العقاب من السلطات فضلاً عن أن عقوبة المواطن تكون أقسى وأشد.

أنماط الكذب

نجد في التصنيف الذي قدمه (سيرل بيرت Cyril Burt) للكذب في حياة الأطفال بعض الصور لهذا الكذب نعرضها فيما يلي:

١- الكذب الخيالي:

يتضح مثل هذا الكذب في سلوك بعض الأطفال ممن يولدون ولديهم خصوبة في الخيال ونشاط فيه، وقد يكونون من ذوي اللسان الطلق، والنمو اللغوي السريع، فيكون لديهم الطلاقة اللغوية في التعبير فيبتدعون قصصاً خيالية لا أساس لها من الصحة، ولا ترتبط بالواقع، وغالباً ما يكون ذلك الخيال انعكاساً لمستوى عالٍ من الذكاء.

---

(١) مصطفى فهمي (١٩٦٧م): الصحة النفسية في الأسرة والمدرسة والمجتمع. القاهرة دار الثقافة، ص ١١٣-١٤٤.

وتتضح قدرات هؤلاء الأطفال الإبداعية في كتاباتهم لموضوعات التعبير، وفي محاولات قرضهم الشعر وهم في سن مبكرة، كما تتضح في الرسوم الحرة التي يقومون بها؛ حيث يبنون عالماً من الخيال وحداته ومفرداته من صنع أفكارهم.

ولا ينبغي أن يهتم مثل هؤلاء المبدعين الصغار من الأطفال بالكذب؛ فقد يكون منهم المخترعون والمبتكرون في المستقبل، وإنما ينبغي أن نساعدهم على أن يدركوا أن للإبداع مجالاته في الفكر والفن والأدب بما لا يتعارض مع الواقع الحي الذي نعيشه في حياتنا اليومية، وأن الإبداع الفكري والفني والأدبي نعمة من النعم التي أنعم بها الله على بعض عباده ليسخروه في خدمة الإنسانية.

وفيما يلي مثال لحالة من الحالات الحقيقة التي عرضت على العيادة النفسية:

كانت هناك ابنة صغيرة اعتادت أن تجلس إلى والدتها وتقص عليها حكايات غريبة عجيبة تدعي أنها حقيقة، وكانت تسترسل في حديثها استرسالاً مشوقاً جذاباً يملك تفكير المستمعين وانتباههم، فأخذها والدها إلى العيادة النفسية لمعالجتها من هذا النوع من الكذب، فلما درس المتخصص النفسي حالة هذه البنت وجد أنها على مستوى عالي الذكاء، وأنها طفلة رائعة الخيال، طلقة اللسان فوجّه والديها بأن يفتحا لها مجال التأليف أو التمثيل، ثم كان لها أثر ناجح في مجال التمثيل، كما ألفت رواية وقامت بإخراجها على مسرح المدرسة، وكان هذا فاتحة خير لمستقبل باهر لها(١).

---

(١) عبد العزيز القوصي: أسس الصحة النفسية، ص ٣٤٢، مرجع سابق.

٢- الكذب الالتباسي:

في هذا النوع من الكذب يختلط الخيال بالحقيقة لدى الطفل ولا يستطيع أن يميز بينهما، فقد يستمع الطفل إلى حكاية خرافية، أو إلى قصة واقعية ويعجب بها وتملك مشاعره ثم يأتي الطفل في اليوم التالي لسماعه تلك القصة أو الحكاية تستمع إليه وهو يتحدث عنها وكأنها وقعت له بالفعل.

وقد يرى الطفل وهو نائم حلماً ما، وعندما يستيقظ الطفل من النوم يحكي الحلم وكأنه قد حدث له بالفعل. ومثل هذا الكذب الالتباسي لا ينبغي أن يزعج الآباء أو يخيف الأمهات، أو يقلق المربين؛ لأنه مسألة تتعلق بالنضج العقلي واكتمال الوظائف العقلية الذي يتم مع التقدم في السن بالنسبة للطفل، فهو إن وجد في سن الخامسة من العمر أو السادسة فإنه يزول بالتدريج، ويتلاشى مع سن العاشرة أو الحادية عشرة. ومع ذلك فإننا نقدم للطفل الإرشاد والتوجيه بما يساعده على التمييز بين الخيال والواقع.

وكثيراً ما يحدث أن يقص الطفل قصة عجيبة، ولو تحقق الوالدان من الأمر لعرفا أنها وقعت للطفل في حلم. ومن هذا النوع أن بنتا في الرابعة من عمرها قامت من نومها تبكي وتقول: إن بائع الثلج المقيم في آخر الشارع ذبح خادمتها في منتصف الطريق، ووصفت بشيء من التطويل كل ما رأته في الحلم. ولم تفرق الطفلة بين الحقيقة والحلم فقصت كل هذا على أنه حقيقة. وهنا يكون على ولي الأمر أن يوضح للطفلة الفرق بين الحقيقة والحلم[١].

---

(١) عبد العزيز القوصي: أسس الصحة النفسية، ص ٣٤٢، مرجع سابق.

٣- الكذب الادعائي:

يلجأ الطفل إلى هذا النوع من الكذب غالباً لشعوره بالنقص أو الحرمان؛ بسبب ضنك البيئة التي ينشأ فيها الطفل. وفيه يبالغ الطفل بالحديث عن اللعب الكثيرة التي يمتلكها، والملابس التي يقتنيها، أو الرحلات التي قام بها، أو الأندية التي يشارك فيها.

وهناك أطفال يتحدثون عن مراكز آبائهم، أو موقع سكنهم أو أثاث منزلهم وسياراتهم... إلخ.

فيشد الطفل انتباه الذين يستمعون إليه، ويحاول أن يصنع من نفسه محور اهتمام، ومركز إعجاب الآخرين.

ويمكن للقائمين على تربية الطفل في مثل هذه الحالات العمل على إعادة ثقة الطفل بنفسه عن طريق إبراز القوة فيه، وتنميتها ليعرف أن قيمة كل إنسان ترجع إلى عمله، وما يدرك ما يستطيع أن يحققه بالفعل لخير نفسه وخير المجتمع.

ومن هذا النوع من الكذب ما يشاهده الآباء والأمهات أو ما يسمعونه من حكايات من غيرهم أن طفلاً مثلاً عندما يستيقظ من النوم مبكراً عند ذهابه إلى المدرسة يدعي المرض، أو يدعي أن أحد زملائه يضربه بشدة؛ وذلك لحظى باهتمام والديه، وينال عطفهما من ناحية، ومن ناحية أخرى حتى لا يذهب إلى المدرسة حتى لا يكلف بواجبات وقيود أخرى من المدرسين.

٤- الكذب الغرضي:

قد يلجأ الطفل الذي يشعر بوقوف الأبوين حائلاً دون تحقيق احتياجاته إلى الاحتيال بطرق مختلفة لتحقيق غرضه، فقد يطلب النقود التي يحتاجها

لشراء الحلوى بحجة أنه يحتاج لشراء أدوات مدرسية أو للمشاركة في أحد الأنشطة المدرسية أو لسداد دين عليه اضطر إليه لشراء لوازم ضرورية.

وقد يدعي أنه ذاهب للاستذكار مع أحد زملائه على حين أنه ذاهب للمشاركة في لعبة جماعية أويدعي أن النقود التي أخذها لشراء شيء ما ضاعت منه وأنه بحاجة إلى عوض عنها.

وقد يطلب باسم أبيه أو باسم أمه نقودا من أحد الجيران أو الأقارب أو يأخذ سلعة من أحد المحال التجارية باسمهما على وعد بالوفاء في أجل قريب.

وواضح أن أسباب هذه الصورة من الكذب تكمن في تشدد الآباء وكثرة عقابهم للطفل، ووقوفهم دون تحقيق حاجاته. وواضح كذلك مدى خطورة هذا النوع من الكذب؛ لأنه قد ينتهي بالطفل وبالأسرة إلى عواقب وخيمة.

والعلاج الجذري لهذا النوع من الكذب ينبغي أن يكون علاجاً وقائياً يقوم على إيجاد الفهم الكامل لدى الآباء والمربين بإشباع حاجات الطفل وإعطائه الثقة بنفسه والاستجابة لمطالبة المشروعة وإعطائه مصروفاً شخصياً (نقوداً خاصة به) يتصرف فيها تصرفاً مسؤولاً تحت إشراف الآباء، بقدر معقول من التسامح، ودون تزمت أو تشدد، على أن يكون المصروف الشخصي للطفل معتدلاً دون إسراف أو تقتير، يتدرب من خلاله على الطريقة الصحيحة لاستخدام المال.

ولا يقتصر الأمر على إشباع الحاجات المادية للطفل إنما يمتد حسن الفهم والتقدير للطفل إلى إشباع سائر حاجاته الأدبية والمعنوية بالتشجيع والعطف والتقدير المتبادل والوقوف إلى جانبه في سائر المشكلات التي تعترضه ومعاونته على تذليلها مع قدر يسير من التوجيه والتدخل ودون أن نشعره بعجزه عن مواجهة المشكلة وحده.

٥- الكذب الانتقامي:

وفيه يلجأ الطفل تحت وطأة الشعور بالغيرة من المكانة التي يتمتع بها غيره من الأطفال في جماعة الفصل أو بين الإخوة والأخوات داخل الأسرة حين يشعر أن بعضهم يلقى معاملة متميزة من المعلم أو المعلمة أو من الأب أو من الأم ـ يلجأ الطفل إلى الانتقاص من قدر الطفل الذي يغار منه بأن يلصق به تهمة من التهم أو ينسب إليه عملاً شائناً، فيقول مثلاً: (إنه كان يقول عن المعلمة شيئاً قبيحاً)، أو إنه (لم يغسل يديه قبل تناول الطعام)، أو إنه (أخذ قلماً ليس له)، أو إن ((النقود التي معه ليست له))... يود بذلك أن يفقده الميزة أو المكانة التي يتمتع بها ليحل هو محله ولتكون له الحظوة بدلاً منه.

وظهور مثل هذه الظاهرة بين الأطفال في البيت أو المدرسة ينبغي أن يوجه اهتمام المربين إلى الانتباه إلى أهمية العناية بجميع الأطفال على قدم المساواة وعدم التفرقة في المعاملة بينهم ولا يكون التقدير الخاص إلا للعمل الحقيقي الذي ينجزه الطفل في مجال من المجالات.. فهذا طفل ممتاز لِخُلقه، والآخر ممتاز في كتابته، والثالث ممتاز في رسمه، والرابع ممتاز في إنشائه.. وينبغي أن يشعر كلّ طفل أنه ممتاز في عمل معين، وأنهم جميعاً سواسية في نظر المعلم أو المعلمة. وينبغي أن تشبع باستمرار حاجة الطفل إلى أن يحبه جميع المحيطين به.

٦- الكذب الوقائي:

يلجأ الطفل أحياناً إلى الكذب نتيجة الخوف من عقاب يخشى أن يقع عليه وخصوصاً إذا كان هذا العقاب قاسياً لا يتناسب مع ما يتطلبه

الموقف.. فيلجأ الطفل إلى الكذب؛ دفاعاً عن النفس، وحماية لها من العقاب.

وفي سن متقدمة مع البالغين نجد أن ولاء الناشئ لجماعته في النشاط المدرسي أو النادي الرياضي قد يدفعه إلى الكذب ليدفع عن الجماعة عقاباً أو ليقيها عقوبة قد تقع عليها.

ويلاحظ أن هذا النوع من الكذب يكثر في مدارس البنين أكثر منه في مدراس البنات، وفي المدارس الثانوية أكثر منه في المدارس الاعدادية (المتوسطة)، وفي هذه المدارس أكثر منه في المدارس الابتدائية؛ حيث ينتج هذا الكذب عن الولاء، والولاء للجماعة يقوى في مرحلة المراهقة، حيث تكون غالباً في المدارس الثانوية أو الإعدادية (المتوسطة)[1] .

وقد يلجأ الطفل إلى الكذب الوقائي لحماية صغير مثله يكون عزيزاً عليه محبوباً لديه كأخيه الصغير أو صديقه - فيقول في بساطة: ((أحمد لم يكسر الكوب)) ويكون الواضح تماماً أن أحمد هوالذي كسره، بل قد يعترف أحمد بكسر الكوب، لكن الطفل يصر على أن أحمد لم يكسره.

والعامل المشترك أيضاً في ظهور هذا النوع من الكذب هو قسوة السلطة وميلها لإنزال العقاب دون تفهم للظروف وشعور الصغار بالقلق إزاء الموقف غيرالثابت الذي قد يتخذه الكبار في مثل تلك الحالات.

٧- كذب التقليد:

الطفل في السنين الخمس الأولى من حياته محب للتقليد، يقلد من حوله في طريقة الجلوس والمشي وطريقة تناول الطعام، بل هو يمتص العواطف

---

(١) عبد العزيز القوصي: أسس الصحة النفسية، مرجع سابق، ص ٣٤٥.

والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير التي يسلكها الكبار حوله في معالجة شؤون حياتهم.

وقد يقع الكذب من أحد الأبوين أمام الطفل في موقف من المواقف دون أن يكون متعمداً للكذب.. فقد يعتذر لصديق بأن ما يطلبه من كتاب أو صحيفة أو مجلة غير موجود، لكن الطفل الصغير يراقب الموقف ويعرف أن الشيء موجود.. وهنا يدرك الطفل أن الكذب يكون مشروعاً في بعض الأمور ويعمم ما تعلمه عن مشروعية الكذب في موقف من المواقف إلى مواقف أخرى يكون فيها الكذب مجلبة لشرور وخيمة.

ومن الأمثلة على لذلك أيضاً ما يحدث أحياناً عندما يكون الأب مرهقاً أو الأم متعبة ثم يدق جرس الباب من ضيف يسأل عنهما أو جرس الهاتف، فيطلب الأب أو الأم من أحد الأبناء أن يعتذر بعدم وجود الأب أو الأم ويكون الصغير مراقباً للمشهد فتنتقل إليه عدوى الكذب الصغيرة لتكون كذباً كبيراً فيما بعد.

ولو أدرك الآباء خطورة مثل هذه المواقف على تعليم أبنائهم، أن الكذب أسلوب للتخلص من المشكلات فلربما ترتب عليه أبلغ الضرر بلجوء أبنائهم إليه في مواقف أخرى يكون خطرها أشد.

وفي هذا المجال ينبغي تدقيق الإشراف على مواد ثقافة الطفل بحيث يكون البطل في قصص الأطفال مثلاً طيباً يُحتذى، كذلك ينبغي التدقيق في اختيار وإعداد معلمة رياض الأطفال لتكون قدوة طيبة للأطفال، يتعلمون منها النماذج السلوكية الصحيحة.

٨- الكذب المرضي أو المزمن:

إذا ما تكرر الكذب من الطفل في أية صورة من صوره، سواء كان إصراراً على الإغراق في الخيال دون أن تعطى الفرصة للعودة إلى الواقع الذي نعيشه، عالم الناس والأشياء، أو كان إصراراً على الخلط وعدم التمييز بين ما هو خيالي وما هو واقعي، أو كان إصراراً على ادعاء ما لا يملكه الفرد من مال أو جاه أو أسلوب حياة ليوهم الآخرين بغير ما هو عليه، أو كان إصراراً على التحايل قصد الوصول إلى الغرض بطرق غير صادقة أو صحيحة أو كان إصراراً على مداومة الانتقاص من الآخرين من شأنهم وقدرهم بهدف الارتفاع على أنقاضهم، أو كان إصراراً على اللجوء إلى اختلاق الأعذار تجنباً للعقاب، أو كان الكذب أسلوباً يمارس بطريقة غير واعية بحيث أصبح طريقة للحياة ـ فإنها جميعاً صور ((للكذب المرضي)) الذي يصبح لازمة من لوازم الشخصية المرضية لمن تربى على الكذب، ولم تتح له الظروف الصحية التربوية السليمة للخلاص منه.. وقد يصل الأمر إلى أن تتعقد الحالة فلا يكون الكذب وحده هو العِلَّةُ التي تصاحب الحالة، وإنما تكون هناك أعراض أخرى كالسرقة أو الغش أو الاختلاس أو التزوير أو غيرها من الجرائم.

وعند ذلك لا يسعنا إلا أن نتذكر في حسرة الحكمة القائلة:

((كل الأمور مبدؤها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر))

ومما يزيد في الحسرة أن مفتاح العلاج للمشكلة كلها كان بيدنا ـ نحن المربين آباء ومعلمين ـ في سن الطفولة الباكرة لفلذات الأكباد، العطف والمحبة والتقدير والثقة وإشباع الحاجات الأساسية والملاحظة لسلوكيات أطفالنا والمتابعة لأي تغير يبدو عليهم، والرقابة عن بعد، مع عدم التدخل والجو العائلي الهادئ والقدوة الحسنة.

الإسلام يوفر الشروط التي تحمي الطفل من الوقوع في الكذب

اتخذ الإسلام موقفاً محدداً الكذب أن الله لا يهدي الكذاب أبداً.

قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ (الآية ٢٨ غافر).

والكذب المرضي داء وخيم العاقبة، وسلوك سيئ يمقته الإسلام الحنيف، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾ (الآية ١٠٥ النحل).

فالإسلام ينظر إلى الكذب على أنه ظاهرة قبيحة، بل إنه داء من أقبح الظواهر، وقد عده الإسلام الحنيف من خصائل النفاق، ومعنى هذا أن الإسلام يقبح هذا السلوك السيئ ويزدريه.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله - عنه أن النبي ﷺ قال: ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهم كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)). (البخاري ومسلم).

ويقبح الإسلام سلوك الكذب لأنه سلوك إذا اعتاده الإنسان جره إلى النهاية الكريهة وفي ذلك يروي ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: ((إياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابا)) البخاري.

وقد يكون المؤمن جباناً، أو بخيلاً ولكنه لا يكون كذاباً؛ فقد سئل رسول الله ﷺ: ((أيكون المؤمن جباناً يا رسول الله؟ قال ﷺ: نعم. ثم قيل له: أيكون المؤمن بخيلاً يا رسول الله؟ قال ﷺ: نعم. ثم قيل: أيكون المؤمن كذاباً يا رسول الله؟ قال ﷺ: لا)) رواه مالك.

وإذا كان هذا شأن ومصير الكذب والكذابين فما على الآباء والأمهات والمربين إلا أن يربوا الأطفال على كراهية الكذب بوصفه سلوكاً سيئاً قبيحاً، وينهوهم عنه، ويحذروهم عواقبه، ويكشفوا لهم عن مضاره وأخطاره حتى لا يقعوا في حبائله، ويتعثروا في أوحاله، وينزلقوا في متاهاته.

ومن المفيد هنا أن ترى هذه القصة التي تعود الأطفال على الصدق، يقول العالم الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله: ((بنيت أمري من حين ما نشأت على الصدق، وذلك أني خرجت من مكة إلى بغداد أطلب العلم، فأعطتني أمي أربعين ديناراً استعين بها على النفقة، وعاهدتني على الصدق، فلما وصلنا أرض همدان خرج علينا جماعة من اللصوص، فأخذوا القافلة، فمر واحد منهم وقال لي: ما معك؟ قلت: أربعون ديناراً. فظن أني أهزأ به. فتركني، فرآني رجل آخر. فقال: ما معك؟ فأخبرته بما معي، فأخذني إلى كبيرهم فسألني فأخبرته، فقال: ما حملك على الصدق؟ قلت: عاهدتني أمي على الصدق، فأخاف أن أخون عهدها. فأخذت الخشية رئيس اللصوص، فصاح ومزق ثيابه وقال: أنت تخاف أن تخون عهد أمك. وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله؟!

ثم أمر برد ما أخذوه من القافلة. وقال: أنا تائب لله على يديك. فقال من معه: أنت كبيرنا في قطع الطريق، وأنت اليوم كبيرنا في التوبة، فتابوا جميعاً ببركة الصدق وكراهية الكذب))[1] .

---

(١) عبد الله علوان: تربية الأولاد في الإسلام: طبعة ثالثة، سنة ١٩٨١ م بيروت، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ص ١٧٥.

وإرساء لبناء الحياة الأسرية السليمة القائمة على المودة والتفاهم والتراحم بين الزوج والزوجة والأبناء أوصى الإسلام باعتبار الزوجة الصالحة ذات الدين؛ ففي الحديث الشريف ((فاظفر بذات الدين تربت يداك))، وفيه أيضاً ((تخيروا لنطفكم؛ فإن العرق دساس)).

وإذا كانت التربية الحديثة تنادي بإشباع حاجات الطفل النفسية من المحبة والعطف والنجاح والتقدير وإحاطة الطفل بالعناية والرعاية والموالاة فلقد سبقها الإسلام السمح الذي أوصى رسولُه الكريم أصحابَه وأتباعه من المسلمين الأوائل بأن يحسنوا إلى أطفالهم فيختاروا لهم اسماً جميلاً يسعده أن ينادى به. والرسول الكريم يستنكر ألا يقبّل الأب أطفاله. ففي الحديث الشريف عن عائشة - رضي الله عنها – قالت: ((قبّل رسول الله ﷺ الحسن والحسين ابني علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرة ما قبلت منهم أحداً قط. فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: من لا يرحم لا يُرحم)) رواه البخاري ومسلم.

وإذا كان حرمان الطفل من إشباع حاجاته الجسمية والنفسية يعتبر دافعاً له إلى سلوك الكذب ليحصل على ما يريد، فقد ضرب الرسول ﷺ لنا المثل الطيب في مراعاة حاجات الأطفال – إذ جاء بالحديث الشريف عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ ((كان إذا أتى بأول ما يدرك من الفاكهة يعطيه لمن يكون في المجلس من الصبيان)) رواه الطبراني.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قال لصبي: تعال هناك أعطك، ثم لم يعطه فهي كذبة)) رواه أحمد. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ((يطبع المؤمن على الخلال (الصفات) كلها إلا الخيانة والكذب)).

وبذلك يؤكد الإسلام أهمية التزام الأبوين وغيرهما من أعضاء الأسرة والمحيطين بالطفل بالصدق ليكون فيهم القدوة السليمة للناشئ.

ويؤكد الإسلام على أهمية البيئة والقدوة؛ فكل مولود يولد على الفطرة، وهي الإسلام، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. فكل شر يلحق بالوليد والناشئ مرجعه إلى البيئة التي يمتص منها قيمه واتجاهاته هذا مع الاعتراف بنوازع الشر الكامنة.. وحثاً على تنقية البيئة الاجتماعية من الكذب، يَعِدُ رسولُ الله ﷺ ببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً.

عن جابر رضي الله عن قال: قال رسول الله ﷺ: ((أنا زعيم ببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً)) البيهقي.

وإذا كان شعور الطفل بالغبن بين إخوته وعدم المساواة في المعاملة الأبوية بينه وبينهم سبباً في شعوره بالاضطهاد وبتمييز الآخرين عليه مما يدفعه إلى أن يسلك طرقاً ولو غير مباشرة يعتقد أنها تزيح عنه الشعور بالاضطهاد والغبن، ومن ذلك سلوك الكذب الانتقامي فينسب إلى المميزين من إخوته ما يشينهم ويزعزع مكانتهم ـ فقد نبه الحديث الشريف إلى العدل والمساواة بين الأبناء.

عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ أن أباه أتى به رسولَ الله ﷺ فقال: ((إني نحلت ابني غلاماً كان لي))، فقال رسول الله ﷺ: ((أكُل ولدك نحلت مثل هذا؟ فقال: لا. فقال: أرجعه)).

وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: ((أفعلت هذا بولدك كلهم؟ قال: لا. قال: اتقوا الله واعدلوا في أولاكم))، فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة.

وإذا كان الأب بحكم قوامته على شؤون الأسرة مسؤولاً عن توفير الاستقرار الأسري والهناء العائلي لزوجته وأبنائه في جو يقوم على إشاعة

الاطمئنان والثقة المتبادلة والفهم والتقدير لظروف كل فرد في الأسرة ومعاونة الصغار على حل مشكلاتهم في جو يظلله الحب والمودة ـ فإن لنا في رسول الله ﷺ في هذا المضمار الأسوة الحسنة؛ جاء في الصحيحين عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: ((خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍ قط ولا قال لشيء صنعته لِمَ صنعته؟ ولا لشيء تركته لِمَ تركته؟ وفي رواية لأبي نعيم قال أنس: فما سبني ﷺ قط، ولا ضربني من ضربة ولا انتهرني، ولا عبس في وجهي، ولا أمر في أمر فتوانيت فيه فعاقبني عليه، فإن عاتبني عليه أحد من أهله قال: دعوه لو قدر شيء كان)).

فأية سماحة وأي حلم وأي صبر وأي عطف.. إنه لو قدر لبيوتنا أن تنعم بقدر يسير مما كان عليه سيد البرية لهان كل صعب، ولما وجد صغير من صغارنا سبيلاً يقوده إلى سلوك الكذب خشية اللوم أو العقاب.

وروى ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته؟ فقالت: ((كان ألين الناس بساماً ضحاكاً، لم ير قط مادًّا رجليه بين أصحابه))، وذلك لعظيم أدبه وكمال وقاره عليه الصلاة والسلام.

إن هذا النموذج الأبوي يمثل دروساً كبيرة للآباء والأمهات والمعلمين وكل من يتولى مسؤولية الرعاية والقيادة لغيره من التابعين.

فاللين والابتسام والضحك إذا ما ساد جو البيت أو جو الفصل مع عدالة في المعاملة قطع كل طريق على الرهبة والخوف والتقوقع واللجوء إلى الأساليب المرضية، ومنها الكذب سبيلاً لتفادي المحاسبة.

إن برنامج التربية السليمة للطفل ـ كما يحدده الإسلام ـ برنامج يقوم على التنشئة السوية على الصدق، والابتعاد عن الكذب، على أساس من الاقتناع الداخلي بأن الكذب في الأقوال والأعمال سلوك سيئ ينتهي

بصاحبه إلى نتائج سيئة في الدنيا والآخرة. وإذا تربى الطفل على الصدق عاش حياة هانئة تتوافر له فيها الصحة النفسية باعتبارها كما جاء في تعريف منظمة الصحة العالمية WHO ((حالة من الراحة الجسمية والنفسية والاجتماعية، وليست مجرد عدم وجود المرض)) [١].

يبدأ برنامج التنشئة الإسلامية للطفل مع بناء الأسرة واختيار الزوجة وبناء بيت الزوجية، وينطلق تنفيذه الفعلي منذ ساعة ميلاد الطفل وهو برنامج متدرج يستمر مع مراحل تعليم الطفل، حتى يجد نفسه ((وقد واكب إعداده لعمل يتولى أمانته ألا وهو عمل في أسرة، تكوينا لها ورعاية وتوجيها واستعدادا للعطاء من أجل إعداد الطفل المسلم الصادق مع نفسه..)) [٢] .

وهذا البرنامج يعتمد على أسس علمية مؤكدة تعتمد على قواعد، من أهمها:

- اختيار الزوجة الصالحة التي نشأت في بيت طيب.
- غرس القيم الإسلامية لدى الطفل منذ ميلاده.
- حماية الطفل من الخوف والقهر والظلم في الأسرة والمدرسة.
- إشباع حاجات الطفل المادية من الطعام والشراب، والمعنوية من عطف وحنان وقبول حسن.

---

(١) حامد عبد السلام زهران: الصحة النفسية والعلاج النفسي، ط ٢٢، عالم الكتب بالقاهرة، ص ٦٥-٦٧.

(٢) سيد أحمد عثمان: الإثراء النفسي – دراسة في الطفولة ونمو الإنسان، ص ٩ مكتبة الأنجلو المصرية ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م، ص ٢٢٤.

- إعداد الآباء والأمهات إعداداً طيباً دينياً وعلمياً وتربوياً؛ فهما القدوة والمثل الأعلى للطفل.
- يكون المربون للطفل قدوة طيبة لا يكذبون في أقوالهم وأعمالهم.
- يكون ما يقدم للطفل من مواد ثقافية وتعليمية مُعداً إعداداً جيداً يتفق وتعاليم الإسلام الحكيم وفق ما جاء بالقرآن الكريم وصحيح سنة رسول الله ﷺ، وسيرة صحابته عليهم رضوان الله أجمعين.
- الأخذ بكل جديد عصري مفيد في علوم التربية والصحة النفسية والعلوم التي تُعنى بالطفل وتربيته حتى تتوافر له الحماية والوقاية من الأمراض النفسية، على أن يكون ذلك الحديد متفقا وتعاليم الإسلام.
- الإشراف الفني الدقيق على كل ما يُقدم للطفل من مواد ثقافية وألعاب تربوية.
- إعداد الحدائق الجميلة والنوادي الرياضية والثقافية لتشبع حاجات الأطفال الجسمية والعقلية والنفسية.

نصائح إلى الآباء والمعلمين والمربين لحماية الطفل من الكذب وغيره من المشكلات السلوكية الأخرى

يحرص أولياء الأمور من الآباء والأمهات حرصاً شديداً على وقاية أطفالهم من المشكلات السلوكية التي يعتبر الكذب من أخطرها، وفي النصائح سيجد هؤلاء الآباء وغيرهم ما يفيدهم كثيراً في تحقيق هذا الهدف وفق مبادئ الشرع الحنيف وقواعد علوم التربية والصحة النفسية:

- عامل ابنك برفق وأشعره بعطفك:

طفلك كائن صغير ناشئ، والعالم حوله أكبر منه بكثير جداً، وهو عالم يكتشفه الطفل، ويحاول دائماً أن يتعرفه على مراحل متدرجة بما يتناسب مع نموه الجسمي والعقلي والانفعالي والاجتماعي والخلقي، وأنت ولا شك تعلم أن هذا النمو مستمر مطرد يستمر في حياة الطفل حتى يصل إلى مرحلة البلوغ والشباب...

ولكي تساعد طفلك على أن يجتاز هذه المراحل في أمن وثقة واطمئنان فلا بد لك من أن تعامله برفق ليشعر بالأمان، وليخطو خطوات أخرى نحو اكتشاف العالم المجهول حوله.. العالم الذي صنعه الكبار بما فيه من قيود ونظم ومسموحات وممنوعات وحدود موضوعة على السلوك الفردي، لا يجوز أن يتخطاها الإنسان وإلا عُدّ شاذّاً أو خارجاً على العرف والتقاليد، عالم يسمح بالتقاليد التي رسمها المجتمع، فيسمح له بالحديث في أمور معينة، ويمنعه من الحديث في أمور أخرى، عالم يسمح له بأن يكتشف إلى حدود معينة، ويحرم عليه أن يتخطى تلك الحدود، عالم يسمح له أن يتناول بيديه ويفحص بحواسه أشياء معينة على ألا يتعداها إلى غيرها، عالم يقف أحياناً متصلباً أمام الدوافع الفطرية والحاجات النفسية للطفل فيحول دون

إشباعها أو التنفيس عنها متذرعاً؛ بمنطق الكبار، وقوانين الكبار، والنظم الموضوعة لهم، بل إن لعب الطفل نفسه وحريته في اختيار ما يلعب به وجمع ما يتوق إليه، وحيازة ما يشغف به تخضع كلها لتدخل الكبار وأوامرهم؛ فهذا ممنوع، وذلك جائز، وهذا مباح.. وعلى الطفل في كثير من الأحيان أن يقبل ذلك دون مناقشة. ولا ينبغي للوالدين أن يسمحا للطفل بحرية مطلقة دون قيود؛ لأن ذلك لا يتفق مع مقتضيات التربية الاجتماعية والخلقية السليمة التي تفرض على المربي أن يساعد الطفل على حب هذه القيم وامتصاصها لكي ينشأ التنشئة الاجتماعية الصحيحة.

ولذلك فينبغي على أولياء الأمور آباء وأمهات أن يحوطوا أبناءهم بالرفق والمحبة والعطف فإن ذلك يخطو بالطفل خطوات كبيرة نحو التربية الاجتماعية الصحيحة مثل الرَّبتِ على كتف الطفل أو تقبيله.. عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله ـ عنها قالت: ((قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن والحسين ابني علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي فقال الأقرع: إن لي عشرة ما قبلت منهم أحداً ـ فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: مَن لا يَرحم لا يُرحم)) (متفق عليه).

وينبغي على أولياء الأمور من آباء وأمهات ومعنيين بتربية الطفل معاملة الأطفال على قدم المساواة، سواء كانوا إخوة أو زملاء في حجرة الدراسة. فينال كل طفل قدراً كبيراً من الاهتمام، والاستماع له، وعدم الانشغال عنه. ويحرص أولياء الأمور على المساواة بين أطفالهم.

عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ أن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ ((فقال: إني نحلت ابني غلاماً كان لي. فقال رسول الله ﷺ: أكل ولدك نحلته مثل هذا؟ فقال: لا. فقال ﷺ: أرجعه)). وفي رواية قال رسول

الله ﷺ: ((أفعلت هذا بولدك كلهم؟ قال: لا. قال ﷺ: اتقوا الله اعدلوا في أولادكم)) الترمذي.

ومن المفيد أن يخصص أولياء الأمور من آباء وأمهات ومربين وقتا خاصاً لمداعبة أطفالهم، والاستماع إليهم في هدوء وعطف وحنان، ومشاركتهم في لعبهم واهتماماتهم، والبعد عن العقاب البدني، وتوفير جو من الهناء العائلي الذي يحيط بالطفل ليواصل خطواته نحو اكتمال النمو في ثقة وسعادة واطمئنان.

- اكسب ثقة طفلك وشجعه على أن يتحدث معك بكل ما يدور في نفسه:

من الطبيعي جداً أن يكثر الطفل من الأسئلة عن العالم المحيط به، بل إن أسئلة الطفل الكثيرة دليل تفتحه وتعطشه للتعلم ودليل على ذكائه..ومن حسن الحظ أن الأسئلة تبدأ في مرحلة مبكرة من حياة الطفل مع تعلمه للكلام.. فهو دائم السؤال عما يحيط به: (أين هذا؟ ما هذا؟).. وهو عن طريق هذا السؤال يعرف أسماء الأشياء ويكررها. ولكنه في مرحلة تالية لا يكتفي بالسؤال: ما هذا؟ لكنه يسأل: لماذا؟ (لم؟) كأنه يريد أن يعرف السبب؟ وهو يقنع من المحيطين به بأية إجابة يسيرة غير متعمقة.

وأسئلة الطفل هذه في مراحل حياته المتدرجة التي يوجهها للآباء وللمعلمين هي عربون لبناء الثقة بينه وبين المحيطين به... فإما أن يستمعوا إليها ويرحبوا بها ويجيبوا عنها، ويكون ذلك علامة اعتراف بالطفل وتقبل له، ومعاونة على أن يأخذ مكانه بين هؤلاء الكبار حوله وتربيته على المصارحة.. وإما أن تقابل بالكفّ والضيق والتبرم والنفور.. ويكون هذا لدى الطفل علامة على عدم التقبل وعدم الترحيب، فتهتز ثقته بما ينتظره في المجتمع القريب المحيط به. فهو مجتمع لا يود

أن يعترف به، وعليه أن يقمع أسئلته حتى لا يضايق من هو بحاجة إلى عطفه ومحبته، وينشأ بذلك نوع من الازدواجية في حياة الطفل النفسية، فالطفل على سجيته وطبيعته يريد أن يسأل ويعرف ويشبع حاجته إلى الكشف والاستطلاع، وهو الطفل في الصورة التي يود الآخرون أن يكون عليها .. الطفل الصامت الذي لا يتكلم إلا بإذن من الكبار المحيطين به. والخطورة هنا تكمن في أن الطفل سوف يبحث عن مصادر أخرى يستقي منها معلوماته في كثير من الأمور، وفي أنه سوف يفقد الثقة في استعداد المحيطين به لتقبله إن لم يصل الأمر إلى ما هو أخطر من ذلك عندما يرتبط حديث الطفل للكبار بالرفض والعقاب.

وفي مثل ذلك الجو تكون الفرصة مهيأة للجوء الطفل إلى (الكذب الوقائي) الذي يحاول أن يحمي به نفسه من عقاب الكبار المحيطين به. وقد تتسخ يداه أو ملابسه أو قد تتكسر بعض أدواته أو قد يكون لديه واجبات مدرسية ثقيلة لكنه لا يجرؤ على الحديث عن كل ذلك أو بعضه مع المحيطين به في المنزل أو المدرسة، فيلجأ إلى التستر والإخفاء والكذب؛ لأنه فقد عنصر الأمان في علاقته مع أقرب الناس إليه.

وقد يكون في مثل هذه المواقف على بساطتها وصغرها في حياة الطفل الناشئ الأساس لكثير من الانحرافات الخطيرة التي يتعرض لها في مستقبل حياته العملي والمهني كالتستر على أخطاء العمل وإخفائها أو الاختلاس أو التزوير وغيرها.

- دعه يستمتع بطفولته وعالمه الخيالي، ومع ذلك تدرج به برفق الى التفرقة بين الخيال والواقع:

إن سعادة الطفل تكون في استمتاعه بمرحلة طفولته، فالطفولة مرحلة لها مداها الزمني زود الله بها الطفل الآدمي وأطال في مدتها لتصل إلى ست سنوات كاملة في الطفولة المبكرة منذ الميلاد وحتى سن دخول المدرسة، ثم أطالها ست سنوات أخرى يقضيها الطفل في المدرسة الابتدائية، سواء كان الطفل لا زال في مرحلة الطفولة المبكرة ينعم بحريته وانطلاقه في ظل الهناء العائلي والرعاية الأبوية والتفاعل مع الإخوة وأقرب الأقارب إليه وينال من الرعاية الجسدية والنفسية الشيء الكثير، أم كان في المدرسة في مرحلة الطفولة المتأخرة يأخذ حظه من التفاعل الاجتماعي السليم مع أقرانه ومعلميه والأنظمة المدرسية ويهيأ لكي يتقبل المعايير الاجتماعية ويتقبل فكرة الحقوق والواجبات ويؤهل للمواظبة خلال سنين دراسته المتلاحقة؛ فإن المربين لا يستطيعون اختصار مرحلة الطفولة أو التقليل من شأنها؛ فللطفل في كل حلقة من حلقات هذه المرحلة خصائص جسيمة ونفسية مميزة.

ففي المرحلة من ٣ ـ ٥ سنوات ـ وهي ما نطلق عليه مرحلة الحضانة ـ يعيش الطفل مرحلة تغلب فيها الخيال على لعبه وعلى اهتماماته؛ فهو يعيد تمثيل الواقع المحيط به البيئة في عالمه الصغير فيقوم بتمثيل الدور الذي يقوم به الأب أو الأم أو المعلم أو الشرطي ويجمع حوله الأطفال من سنه ليشاركوه إعادة تمثيل هذا الواقع فيما نطلق عليه (اللعب الإيهامي).. وهو قد يحول الكرسي أو النضد إلى عربة أو سيارة أو طائرة لها أزيز وضجيج، وقد يحول غطاءات الزجاجات إلى أطباق، والسلال الصغيرة إلى أثاث وفراش، وهو يخاطب هذه الأشياء ويحاورها ويبعث فيها الحياة..

وهذا ضرب من ضروب الخيال الذي يميز حياة الطفل في هذه المرحلة. ومن المهم والضروري أن يحترم الآباء والأمهات والمحيطون بالطفل هذه الخاصية في حياة الطفل، فلا يسخرون من عمله ولا يتدخلون فيه ولا يوجهون إليه أي لوم أو تأنيب؛ لأنه في الحقيقة يهيئ الطفل لتقبل الأدوار الاجتماعية المختلفة التي تنتظره، فهو يمثل هذه الأدوار ويكررها ويجترّها ويلقنها لنفسه حتى إذا ما شبع منها في نهاية المرحلة انتقل إلى المرحلة التالية التي يبدأ فيها بالفعل في ممارسة تحمل المسؤوليات المناسبة له كتلميذ يأخذ مكانه في الصف ويستمع إلى المعلمين وينفذ ما يقولون ويؤدي واجباته المدرسية.

وكذلك فإن رسوم الأطفال تمثل مجالاً آخر من المجالات التي تبدو فيها الخصائص المميزة لنمو الأطفال؛ فالطفل عندما يرسم فإنه لا يتقيد بمنطق الكبار، فهو يرسم ما يعرفه لا ما يراه.. فهو يرسم قرص الشمس في اللوحات التي يطلب إليه رسمها ويرسم السمك في قاع الأنهار والبحار، ويرسم للسيارة أو المركبة أربع عجلات كما يرسم الركاب داخل السيارة دون أي قيد بقواعد الرسم المنظور.. ومن العبث بل من القسوة أن نطالبه في تلك السن المبكرة بالتقيد بالرسم المنظور.. وإنما يرسم الطفل مناظر من القصص الخيالي الذي يقدم له.. على أن هذا لا يمنع من أن يركز المربي تدريجياً على توجيه اهتمام الطفل إلى ملاحظة الظواهر الحية ومحاولة وصفها وتعرفها ليدرج الطفل تدريجياً إلى عالم الواقع.

إن بعض الأطفال يندمجون أحياناً في موقف القصّاص الذي يقص على من حوله قصة من نسج خياله، قد يصبح هو بطل القصة، وقد ينسب إلى نفسه أو إلى أشخاص القصة أعمالاً أو أدواراً لم تقع على الإطلاق... والطفل قد يوظف عناصر الواقع المحيط في القصة التي يقصها توظيفاً

ينفس به عن مخاوفه أو يعبر بها عن طموحاته أو ليشبع بها رغباته المكبوتة أو ليحكي خلالها ما رآه في أحلامه.. وهو في كل ذلك لا يفرق بين عالم الخيال وعالم الواقع.

وموقف الكبار من الطفل في هذه المرحلة غاية في الخطورة، فلا ينبغي أن يعتري الكبار أي قلق إزاء هذه الظواهر.. فهي ظواهر طبيعية متوقعة في حياة أطفال مرحلة الطفولة المبكرة ((الحضانة والرياضة)) من ٣ ـ ٦ سنوات.. وهي من علامات النمو الطبيعي. ومن الخطأ الكبير أن نصف الطفل في تلك المرحلة بمجافاة الواقع أو الحيد عنه أو نتسرع فنصفه بالكذب؛ لأنها ـ كما أوضحنا ـ خطوات على التدرج الطبيعي لنمو الطفل لكي ينتقل منها نقلة سهلة ميسرة إلى عالم الواقع ـ لذلك فإننا نقول للآباء:

((دعوا الطفل يستمتع بطفولته في عالمه الخيالي.. ومع ذلك تدرجوا به برفق إلى التفرقة بين الخيال والواقع)).

- وفر للطفل حاجاته الأساسية بدرجة معقولة:

يحتاج الطفل إلى حاجات أساسية ونفسية، والحاجات الجسمية تقوم أساساً على توفير السكن المناسب، والكساء الذي يسعد الطفل، والغذاء الصحي الكافي. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ (الآية ٢٣٣ البقرة).

والطفل يذهب إلى المدرسة ويقضي يوماً طويلاً قد يشعر خلاله بالعطش فيحتاج إلى أن يشرب زجاجة من عصير، كما قد يشعر بالجوع فيتناول قطعة حلوى، كما قد يحتاج إلى تعويض قلم ضاع منه، أو كراسة نفدت أوراقها، أو شراء مسطرة أو ممحاة، وخصوصاً عندما يرى غيره من الأطفال وهم ينفقون على تلك الأشياء من مصروفهم الشخصي.. ولذلك ينبغي أن يقدم أولياء الأمور للطفل ما يحتاج إليه من هذه الماديات. وفي ذلك يفضل أن نستمع إلى حديث رسول الله ﷺ، فعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله)). قال أبو قلابة: وبدأ بالعيال، ثم قال أبو قلابة: وأي رجل أعظم من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم ويغنيهم. (مسلم).

فينبغي أن يوفر أولياء الأمور للطفل حاجاته المادية والنفسية كالحب والأمن والعطف والحنان، والحرية في لعبه، واختيار ما يلعب به، وحرية التعبير عما في نفسه وعما يقلقه؛ حيث حاجة الأطفال المادية لا تقل عن حاجاتهم النفسية.

– صدقه، وابتعد تماماً عن أن تشعره بأنك تشك فيما يقوله. ولا تصفه أبداً بالكذب، وحاول أن تتعرف الأسباب التي تجعله يلجأ إلى البحث عن الذرائع، وابعث في نفسه الاطمئنان.

عندما تتبنى علاقتك بالطفل على المحبة والثقة والمصارحة فإن هذه العلاقة تعتبر بحق إنجازاً عظيماً على طريق الصحة النفسية للطفل، فهو طفل سعيد يصارح أبويه ومعلميه بكل ما يجدّ له، ولا يجدُ أي حرج في أن يبوح بمخاوفه للقريبين منه ـ لذلك فإننا نساند باستمرار بناء تلك الثقة ودعم الأسس التي بنيت عليها.

إن أية محاولة تصدر عن الآباء أو المعلمين توحي إلى الطفل بأننا نتشكك فيما يقول هي هدم لتلك الثقة التي بنيناها، وهي تنقل إلى الطفل رسالة معناها (أنه يحتمل أن يكون غير صادق فيما يقول). وكأننا بذلك نفتح أمامه باباً آخر للسلوك (الكذب) يمكن أن يلجأ اليه. ويزداد الموقف تعقيداً إذا ما اقترن هذا الشك في سلوك الطفل بتهديد بإنزال العقاب به إذا ما اتضح كذبه مما ينقل إلى الطفل رسالة ثانية أخرى هي أن (السلطة) بنهجها الجديد تقدم الشك وتهدد بالعقاب.. وهو وضع اتهام لطفل في التصريح بمكنون نفسه للأب أو المعلم في ظل علاقة الحب والمصارحة.

ومن المؤسف أن علاقة المصارحة القائمة على الحب والثقة إذا ما تعرضت لاهتزاز نتيجة للخطأ الذي يقع فيه المربي بإبداء الشك فيما يقوله الطفل أو بإشعاره بأنه ربما يكون كاذباً.. هذه العلاقة إذا ما اهتزت كان من الصعوبة بمكان أن يعاد بناؤها بالقوة نفسها التي كانت عليها.

ومع ذلك يشعر المربي في موقف من المواقف بأن الطفل يعاني حالة خاصة أو أنه يلجأ إلى إخفاء شيء عن أبويه أو عن معلمه، أو أنه يتذرع بأعذار غير حقيقية لعدم إنجازه عملاً ما.. وهنا يكون علىالمربي أن

يستثمر علاقة الثقة بينه وبين الطفل في تعرّف على الأسباب الحقيقية التي اضطرته إلى اتخاذ هذا السلوك.

- لا تجبره على أداء عمل لا يميل إليه قسرا، وإنما حاول أن تشركه في تذليل الصعوبات التي تعترض أداءه لذلك العمل:

إننا عندما نكلف الطفل بأداء عمل من الأعمال فإنه يجب علينا أن نراعي قدراته الجسمية والعقلية وحالته النفسية بوجه عام؛ فقد يكون العمل فوق طاقته من الناحية الجسمية والعقلية وعند ذاك يضطر الطفل تحت وطأة الخوف من العقاب وإغضاب السلطة أن يحتمي بشخص آخر قريب له كالأم مثلاً أو أحد الإخوة ليؤدي العمل نيابة عنه، ثم يكذب على السلطة ويدعي أنه أنجز العمل بنفسه.. وفي هذا ما فيه من إضرار بالجانب الخلقي للطفل؛ فقد يعتاد أن ينسب عمل الغير إلى نفسه..

ويحدث ذلك في حالات كثيرة مثل تكليفه ببعض الأعمال المنزلية التي لا يقدر عليها وخاصة إذا كان يعيش مع غير والديه كزوجة الأب أو زوج الأم وغيرهما.. وكما يحدث في تكليفه ببعض الواجبات المدرسية الشاقة، كتكليفه بكتابة الجملة ثلاثين أو عشرين مرة، وهذا فوق طاقة الطفل، فيضطر إلى اللجوء باكياً إلى أمه أو أحد إخوته ليكتب له التكليف المطلوب ثم ينسبه إلى نفسه ليكسب رضاء المعلمة أو ليفلت من عقابها.. غير أن لهذا أثره السيئ على سلوك الطفل في المستقبل؛ حيث يتعود أن ينسب عمل غيره إلى نفسه، وهو سلوك لا يقره الدين ولا الخلق؛ لأنه كذب يخلق الحزازات الشخصية وينشر الحقد والكراهية ويفتئت على حقوق الغير.. فالمفروض ألا يزيد الواجب المنزلي في تلك السن المبكرة على عشر دقائق أو ربع ساعة، فلا يكرر الطفل كتابة الجملة المطلوبة أكثر من ثلاث

مرات حتى لا يكون لعامل التعب والضجر أثر، في إنجاز الأسطر التالية مليئة بالأخطاء وناقصة، وتدل على أن الطفل كان منهكاً وهو يؤدي العمل.

وإذا ما كان التكليف بحل بعض المشكلات الحسابية أو بعمل نموذج بشكل معين من ورق القص واللصق أوغيره ـ فإن واجبنا أن نأخذ بيد الطفل خطوة خطوة لتوضيح كيفية أداء العمل المطلوب.. وقد نقدم له مشكلة حسابية مشابهة تماماً للمشكلة المعروضة عليه ونشركه في حلها، ثم نطلب إليه أن يحل المشكلة التي بين يديه على النسق نفسه، كما ينبغي أن نستغل الحوافز المادية والأدبية والتشجيع ليحتفظ بحماس الطفل لأداء العمل، ونشيد بما تم إنجازه ونكافئه عليه. ولا يجوز لنا أن نشجع الطفل بحال إذا ما نسب عمل غيره إلى نفسه.

- وفر للطفل الهناء العائلي، واجعله يعيش في جو من التفاهم المتبادل بين جميع أفراد الأسرة، وابتعد عن أي انفعال يثير الخوف أو الفزع في نفس الطفل:

الهناء العائلي مظلة يستظل بها أفراد الأسرة، يوفره الأب والأم، ويتحملان القدر الأكبر من المسؤولية في هذا السبيل، ويوفره الأبناء للأسرة بطاعتهم للآباء وتنشئتهم التنشئة الدينية الصحيحة على القيم الإسلامية الخالدة؛ فالمحبة والود والتعاطف والمصارحة والمناقشة الهادئة للمشكلات التي تجد في حيز الأسرة، والمشاركة مع الجميع في إبداء الرأي في كيفية مواجهة تلك المشكلات وقيام كل فرد بنصيبه من المسؤولية عن رغبة وحب وطواعية في تلك المواجهة، كل ذلك كفيل بأن يسير ركب الحياة العائلية في سهولة ويسر ونعومة نحو تحقيق أهداف الأسرة.. فشخصية الأب وشخصية الأم المتسامحة الحريصة على تجاوز كل أزمة تجد في حياة الأسرة في هدوء والبعد عن التسلط أو التزمت أو المحاسبة

القاسية على كل تصرف يقوم به أعضاء الأسرة والتعاضد والتساند أمام المشكلات والعطاء الكامل والالتزام الديني والخلقي والاقتداء بسنن الهادي الأمين وصحبه والتابعين تتطلب أن يبتعد الأبوان عن أي انفعال يثير القلق أو الخوف أو الفزع في نفوس الأبناء فكل شيء يسير في هدوء، ولا يخفى ما يترتب على غياب هذه العناصر الطيبة من حياة الأسرة.. وأقل ما يمكن أن يترتب على الحيد عن تلك الشروط هو انقسام الأسرة إلى اتجاهات متعارضة.. لتأييد سياسة الأب أو تأييد سياسة الأم، أو السخط على سياسة الاثنين كليهما.. وهو ما يعطي الفرصة لظهور الكذب أو النفاق أو التملق وغيرها من عوامل الهدم لحياة الأسرة.

ومن المعروف أن الأسرة هي المجتمع الصغير الذي يعد للحياة في المجتمع الكبير، وأن الطفل يكتسب خلال حياته في الأسرة العديد من أنماط السلوك التي تنتقل معه إلى حياته في المجتمع الكبير، فهو يعمم السلوك الذي تعلمه في الأسرة على تعامله مع أفراد ومؤسسات المجتمع الكبير في الفصل وفي الملعب وفي الشارع وفي المدرسة وفي السوق ومع رفاق وزملاء العمل في المستقبل، لذلك ينبغي أن يدرك الآباء خطر الدور الذي يقومون به في التربية المنزلية على حياة وسلوكيات ابنهم أو ابنتهم الناشئة في المجتمع الكبير في مستقبل حياته أو حياتها. فالكثير مما تشكو منه بعض المجتمعات من انتشار الكذب أو الملق أوالنفاق قد نجد أن بذوره الأساسية وجذوره الأساسية ترجع إلى ما تعلمه الطفل مما يدور في الأسرة الصغيرة التي نشأ فيها أو في مجتمع الفصل أو المدرسة.

- تفاهم الآباء والأمهات والمعلمين على المعاملة المتزنة الثابتة للطفل في المواقف المتشابهة واتخاذ الموقف الموحد إزاء السلوك غير المرغوب فيه يعطي القيم الأخلاقية معنى وييسر امتصاص الطفل لتلك القيم:

ويقصد بالمعاملة المتزنة هنا المعاملة التي تقوم على محاولة فهم الظروف المحيطة بالطفل، والدوافع النفسية التي وراء السلوك الذي قام به، والضغوط التي أثرت عليه، واتخاذ الموقف المناسب إزاء السلوك بحيث يخلو من الانفعال ويأخذ في الاعتبار صالح نمو الطفل وتوجيهه التوجيه الصحيح فيما يتصل بمستقبل حياته وعلاقاته في البيئة.. ويفترض أن تكون المعاملة ثابتة في المواقف المتشابهة؛ فموقف الأب هو موقف الأم هو موقف المعلم المربي، فلا يكون هناك اختلاف بين هذه الجهات في تقويمها لسلوك الطفل.. هو سلوك غير مقبول مع الجميع أو هو سلوك مقبول من الجميع، وهو سلوك يستحق العقاب أو هو سلوك يستحق الثواب، ولا مجال للاختلاف في الحكم حول تقويم ذلك السلوك.. سواء حدث في الماضي أو في الحاضر أو حدث في المستقبل؛ فالقيم الدينية والخلقية والاجتماعية قيم لها صفة الثبات والاستقرار، وهي قيم تحظى بالاحترام والموافقة والتدعيم من المجتمع على اختلاف فئاته..

وهذا الاتفاق يعطي القيم معنى، وييسر امتصاص الطفل لها وأخذه بها، واتخاذها مناراً يهدي سلوكه في مختلف جوانب حياته، ومن تلك القيم قيمة تعمل على نشر الثقة والأمان والمحبة بين جميع أفراد المجتمع.

- اهتم بملاحظة سلوك طفلك، وما قد يطرأ عليه من تغير، لكن لا تكثر من التدخل في شؤونه، ولا تشعره بأنه مراقب، وحاول من ملاحظتك له أن تتعرف على المشكلات التي قد تجد له أثناء نموه:

من حديث عن ابن عمر رضي الله عنهما: ((... والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها...)).

إن الاهتمام بملاحظة سلوك الأبناء عن كثب دون أن نشعرهم بأننا نتدخل في شؤونهم يعتبر مصدراً مهما لكثير من المعلومات عن نمو الطفل؛ فشهية الطفل للطعام، ونشاطه المتدفق في اللعب وفي الحديث وفي الحركة، والسرور البادي على وجهه ـ كلها مظاهر للصحة الجسمية والنفسية. أما فقدان الشهية للطعام والشرود وامتقاع الوجه والتردد في الحديث وأمراض الكلام الطارئة والعودة إلى التبول غير الإرادي والخمول وعدم الرغبة في الاستيقاظ المبكر للذهاب إلى المدرسة وفقدان الحيوية ـ كلها مظاهر لوجود أشياء جدّت على حياة الطفل في علاقاته المدرسية أو سيره الدراسي، أو في معاملة معلميه أو زملائه له..

وهنا يكون على الوالدين أن يتصلا بالمدرسة لتعرُّف سيرة الطفل التحصيلي وتقدمه الدراسي وعلاقاته المدرسية بالمعلمين وبغيره من الأطفال، بل قد يكون ذلك أيضاً مدعاة لمراجعة أسلوب المعاملة للطفل.. ويستطيع الآباء من خلال تعرُّف المشكلات التي تعترض نمو الطفل وتحديدها واتخاذ أساليب العلاج الناجع إزاءها بمعاونة المدرسة.

وإن الصلة بين المنزل والمدرسة كفيلة بأن تقطع على الطفل السبيل؛ حتى لا يحاول أن يجد ذرائع غير حقيقة يبرر بها ما يعانيه من مشكلات.

يقول عبد الله علوان في الجزء الثاني من كتابه ((تربية الولد في الإسلام)): ومن الأمور المهمة التي يجب أن يعلمها المربي أن التربية بالملاحظة لم تقتصر على جانب أو جانبين من جوانب الإصلاح في تكوين النفس الإنسانية، إنما ينبغي أن تشمل جميع الجوانب: إيمانية وعقلية وخلقية وجسمية ونفسية واجتماعية؛ حتى تعطي هذه التربية ثمارها في إيجاد الفرد المسلم المتوازن المتكامل السوي الذي يؤدي لكل ذي حق حقه في الحياة.

ويضرب أمثلة للجوانب التي ينبغي أن تشملها الملاحظة في الجانب الإيماني، والتي تشمل: ما يتلقاه الولد من مبادئ وأفكار واعتقادات على يد من يشرفون على توجيهه وتعليمه في المدرسة أو غير المدرسة، وأن يلاحظ ما يطالعه الولد من كتب ومجلات ونشرات، وأن يلاحظ من يصاحبه الولد من رفقاء وقرناء.

كما يضرب أمثلة للنواحي التي ينبغي أن تشملها الملاحظة في الجانب الأخلاقي والتي تشمل مدى التزامه بالصدق والأمانة وحفظ اللسان. وللنواحي التي تشملها الملاحظة في الجوانب النفسية والإرادية مثل تقليد الغير والاستماع إلى الموسيقى والغناء الخليع والتخنث، ومخالطة غير المحارم من النساء...إلخ والكتب والمجلات التي يقتنيها.

كما تشمل الملاحظة ملاحظة انتظامه في الدراسة وتحصيله العلمي وتكوينه الثقافي[1] .

---

(١) عبد الله علوان: تربية الأولاد في الإسلام ج٢ ص ٧٣٥- ٧٥١.

المراجع

١- حامد زهران: الصحة النفسية والعلاج النفسي، القاهرة: عالم الكتب ١٩٧٧م.

٢- حامد زهران: علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة)، ط ٥، القاهرة: عالم الكتب ١٩٩٠م.

٣- حامد زهران: التوجيه والإرشاد النفسي، ط٢ ، القاهرة: عالم الكتب ١٩٨٢م.

٤- حامد زهران: علم النفس الاجتماعي، طبعة ٥ القاهرة: عالم الكتب ١٩٨٤م.

٥- خليل محسن: الأمراض العصبية والنفسية عند الأطفال والأولاد، أسبابه وطريق علاجه، بيروت: دار الكتب العلمية.

٦- رمزية الغريب: التعلم دراسة تفسيرية وتوجيهية. القاهرة: الأنجلو المصرية ١٩٧١م.

٧- سيد أحمد عثمان: الإثراء النفسي ـ دراسة في الطفولة ونمو الإنسان، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦م.

٨- صلاح مخيمر: في علم النفس العام...، القاهرة: مكتبة سعيد رأفت.

٩- عبد العزيز القوصي: أسس الصحة النفسية. ط ٩، القاهرة: دار النهضة المصرية ١٩٨١م.

١٠- عبد الله علوان: تربية الأولاد في الإسلام: طبعة ثالثة، بيروت: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨١م.

١١- محمود الزيادي: أسس علم النفس العام، ط ٢. القاهرة: مكتبة سعيد رأفت ١٩٨١م.

١٢- مصطفى فهمي: الصحة النفسية في الأسرة والمدرسة والمجتمع. القاهرة دار الثقافة ١٩٦٧ م.

فهرس المحتويات



الردمك: ٥ - ٣٢٥ - ٢٠ - ٩٩٦٠